

تتبعنا جميعاً

تتبعنا جميعاً



01002

Bibliotheca Alexandrina



0137096

رجال عظام ونساء عظيمات

رجال عظام.. ونساء عظيمات

ناهـد صـبـد الفـتـاح

قامت الفنانة بوضع قصاصات ورقية ملونة ومزجتها بالألوان، ثم غدت بها الكمبيوتر لتتعامل معها مرة أخرى، فطمست بعض الملامح وأبرزت البعض الآخر، ثم أضافت أرضية متدرجة الألوان لتحيط الصورة، وقد إستطاعت التعبير عن معاناة الزعيم الهندي غاندي حيث قدمت الوجه العيوس وكأنه لم يعرف الراحة قط، حتى العيون أضافت إليها اللون الأحمر لتؤكد إحساس السهد وعذابات الاضطهاد، في حين تركت الوجهين الملاصقين له وكأنهما المصد له، لتزيد من تأكيد ما يعانيه وجه غاندي.

محمود الهندي

رجال عظام .. ونساء عظيمات

تأليف: ليزلى ليقيت
ترجمة: مختار السويقي
مراجعة: محمد العزب موسى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠ مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(أعمال ناشئين)

رجال عظام .. ونساء عظيمات

تأليف: نيزلى ليشيت

ترجمة: مختار السويضى - مراجعة: محمد العزب موسى

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ: هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفنى:

القنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د . سمير سرحان

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التي أطلقها المواطن المصرية النبيلة «سوزان مبارك» في مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذي فجر بياض الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذي كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفي مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافي الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التي أصدرت في سنواتها الست السابقة (١٧٠٠) عنواناً في حوالي (٣٠٠) مليون نسخة لاقت نجاحاً وإقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى (٣٠٠) ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الأثرى الكبير «سليم حسن» في (١٦) جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذي تفوذه السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

المهاتما غاندى

عند غروب شمسى يوم ٣٠ يناير سنة ١٩٤٨ ،
كان هناك رجل عجوز ضئيل الجسم يعبر حسوس
منزله أخذا طريقه الى المعبد لأداء الصلاة • وفجأة ،
سمع دوى آلابع طلقات نارية سقط الرجل على اثرها
على الأرض •

وفى تلك الليلة ، قال صديق العظيم « بانديت
نهرى » وهو يتعبه من خلال الاذاعة الى شعب الهند :
« لقد انطفأ النور من حياتنا •• وحل الظلام فى
كل مكان •• » •

وقصة حياة هذا الرجل العجوز الضئيل الجسم ،
هى قصة حياة رجل من أعظم الرجال •• المهاتما
غاندى •• وهى قصة يجب ان يعرفها الجميع ••



• مکھاتما ٲانننن

١ - فى بيته

فى ٢ اكتوبر سنة ١٨٦٩ ، ولد موهانداس
غاندى فى احدى مدن غرب الهند . و « موهانداس »
هو اسمه الاول . اما لقب « الماهاتما » فهو لقب منح
اليه فيما بعد ، ومعناه « الروح الكبير » .

وعلى مدى سنوات طويلة ، تبوات أسرة غاندى
عديدا من الوظائف الكبيرة الهامة فى الحكومة . وكان
أبوه يشغل منصبا رئيسيا فى احدى ولايات الهند .

وكان رجلا مهذباً وشجاعاً وعرف بحسن أدائه لعمله
وسمعته الطيبة .

وكان الطفل موهاندااس يحب والديه حباً جماً ،
وكانت أمه سيدة متدينة محبة للصلاة ، وكانت لا تقوم
باعداد أية وجبة طعام للأسرة ، الا بعد أداء صلوات
خاصة .

وفي إحدى المرات شعرت الأم بأن واجبها الدينى
يفرض عليها أن تصوم وتضرب عن تناول الطعام حتى
ترى الشمس . وكان الوقت آنئذ فى فصل سقوط
الامطار ، واختفت الشمس وراء السحب منذ مدة
طويلة . وقلق الأطفال لحال أمهم ، فأخذوا يقضون
الساعات الطوال متطلعين الى السماء لعل السحب
تنفجر قليلا فتظهر الشمس ، فيسرعون الى أمهم
لاخبارها بأن الشمس قد ظهرت فتوقف صيامها وتبدأ
فى تناول الطعام .

٢ - فى المدرسة

وقد ألف المهاتما غاندى كتابا عن بعض ذكرياته،
أخبرنا فيه عن أشياء كثيرة من ذكريات طفولته
وسنواته الأولى . وقال غاندى فى بعض صفحات هذا
الكتاب انه لم يكن من السهل عليه أن يعقد صداقات
مع قرنائهم من زملاء المدرسة . وكان أصدقاءه الوحيدون
هم كتبه ودروسه . وكان يجرى منطلقا إلى بيته فور
انتهاء الدروس خوفا من أن يكلمه أحد أو يسخر منه
أحد .

كان طفلا معروفا بالصنق والأمانة . ولكن حدث
فى أحد الأيام ما كدر صفوه . وكان الأمر يتعلق
« بالألعاب المدرسية » . حيث يفرض عليه الاشتراك
مع غيره من الأولاد على غير رغبة منه . كما كان يريد
الانصراف من المدرسة فورا بعد انتهاء الدروس لكن
يساعد أباه . ولذلك فقد كان غاندى لا يحب الاشتراك
فى هذه « الألعاب المدرسية » وكان يعتبرها مضيعة
للوقت .

وفى يوم ما بعد انتهاء الدروس فى الفترة
الصباحية ، طلبوا منه أن يعود الى المدرسة فى الساعة
الرابعة بعد الظهر للاشتراك فى الألعاب المدرسية .
وكان موهانداس لا يمتلك ساعة يعرف بها الوقت ، كما
أخطأ فى تقدير الوقت بسبب السماء الملبدة بالسحب
والغيوم . فوصل الى المدرسة بعد انتهاء الألعاب
وانصراف التلاميذ .

وفى اليوم التالى أخذ موهانداس يبرر للناس
السبب فى تأخره فى الحضور الى المدرسة عصر

اليوم السابق . ولكن البناظر لم يصدق . بل وقيل له
انه يكتب ولا يذكر الحقيقة ولا بد ان يعاقب على ذلك .

كاذب ١٩٠٠

هل هذا معقول ١٩٠٠

ولكن كيف يستطيع ان يبرهن على انه لم يذكر
سوى حقيقة ما حدث فعلا ١٩٠٠

وفي هذه السن المبكرة ، أدرك غاندى ان رجل
« الحقيقة » لابد ان يكون أيضا رجلا « حريصا » . وأن
الاهمال قد يؤدى الى حمل الآخرين على تكوين فكرة
خاطئة عن الرجل ، حتى لو كان صادقا بالفعل .

وقد غير غاندى فكرته عن الألعاب الرياضية
فيما بعد . ولحسن الحظ فقد قرأ فى أحد الكتب عن
الفوائد الثمينة لرياضة « المشى » ، فبدأ منذ صباه فى
المشى لمسافات طويلة فى الهواء الطلق . وظلت هذه
الرياضة مفضلة لدى غاندى ، كما ظل يمارسها طوال
حياته .

وذكر غاندى أيضا فى كتابه هذا أن خطه كان
رديشا ويقرأ بصعوبة ، وأنه لم يبذل أى جهد لتحسينه
لأنه كان لا يرى أية أهمية لذلك . ولكنه عندما ذهب
الى جنوب افريقيا ، ورأى الخطوط الحسنه الجميلة
التي كان يكتبها المحامون والشبان هناك ، شعر بالحجل
الشديد من رداءة خطه ، وأدرك أن الكتابة بخط ردىء
تعتبر علامة ضعف فى الانسان . وبالرغم من ذلك فقد
ذكر غاندى أنه عندما أدرك هذه الحقيقة وبدأ فى
تحسين خط كتابته ، كان الوقت قد فات .

٢ - الزواج

تزوج موهانداس وهو فى سن الثالثة عشرة .
وكانت هذه السن المبكرة تعتبر أمرا طبيعيا ومناسية
للزواج فى الهند فى تلك الأيام . وكان أخوه الأكبر
قد تزوج من قبل . وأصر الوالدان على تزويج ابنتهما
الثانى وابنتهما الثالث « موهانداس » مع ابن عم لهما
فى حفل زواج واحد . وكانت حفلات الزواج تتطلب
الكثير من الأموال لشراء الهدايا وإقامة مأدب الطعام
وشراء الملابس الجديدة . لذلك فقد رأت الأسرة أن
إقامة احتفال جماعى بتزويج الأبناء الثلاثة دفعة واحدة

يوفر الكثير وكانت عروس موهانداس فتاة صغيرة لم
تذهب قط الى المدرسة . وكان هذا الزواج المبكر
سببا في صرفه عن تحصيل دروسه في المدرسة
الثانوية ، فرسب وأعاد السنة الدراسية . ولكنه
استطاع بمزيد من الجهد فيما بعد أن يدرس علوم
سنتين دراسيتين في سنة دراسية واحدة ، وعوض
بذلك العام الذي فقده .

٤ - أخطاء الشباب

وكان من ضمن زملائه بالمدرسة ، شلي صغير لا يتمتع بأخلاق طيبة . فصادقه موهانداس وهو يعلم هذه الحقيقة وبالرغم من نصائح زملائه الآخرين بالابتعاد عن هذا الشاب . وكان موهانداس يشعر بأنه قادر على تغيير وتحسين أخلاق صديقه .

وكانت أسرة غاندى تؤمن بعقيدة دينية تحرم ازهاق روح أى مخلوق من المخلوقات . ولذلك فقد كانت تحرم أكل اللحم تحريماً قاطعاً . ولكن الصديق أخذ يزين له فوائد أكل اللحوم ويقول له :

اننا ضعفاء .. واستطاع الانجليز ان يتحكموا
فينا لانهم ياكلون اللحوم .. وانا اتمتع بجسم قوى
واستطيع الجرى لمسافات طويلة لاني اكل اللحم ..
وانت ايضا يجب ان تاكل اللحم .. ولتاكل الآن قطعة
منه لترى بنفسك القوة التي ستمنحها لك !!

وبدا موهانداس يصدق بعضا من اقاويل صديقه
فقد كان هو نفسه ذا جسم ضعيف ولا يستطيع القفز
او الجرى ، كما كان يخاف الظلام لدرجة انه كان
يحتفظ بالمصباح مشتعلا طول الليل في غرفة نومه .
ولهذا فقد بدأ موهانداس يقتنع برغبته في اكل اللحم
برغم انه كان يكره ان يخدع والديه .

وفي يوم ما تسلل الصديقان الى مكان منعزل
هادئ قرب شاطئ النهر . وهناك تذوق موهانداس
طعم اللحم لأول مرة في حياته . واكل قطعة صغيرة من
لحم الماعز . وشعر بالغشيان . ومع ذلك فقد استمر
صديقه في اعطائه قطعة من اللحم بين حين وآخر وعلى
مدى عام كامل . الى ان توقف تماما عن فعل ذلك

معلمنا أن أسوأ ما فى هذه الدنيا أن يخسرع أباه وأمه بمثل هذه الطريقة . وبطبيعة الحال فلم يعرف والداه شيئا عن هذا الموضوع ، ولكن منذ تلك اللحظة ، توقف غاندى عن أكل اللحوم طوال بقية حياته .

وفى أثناء تلك الأيام أيضا بدأ موهانداس هو وصديق له يدخنان السجائر ، ليس عن رغبة أو كيف أو مزاج ، وإنما ليقللوا الكبار عندما ينقنون الدخان من أفواههم وأنوفهم . ولما كان موهانداس وصديقه لا يملكان نقودا كافية لشراء السجائر ، كما أن بقايا السجائر التى كانا يجمعانها لم تعد كافية ، لذلك فقد اضطرا لسرقة قليل من النقود من خدم المنزل . وعندئذ توقف موهانداس عن التدخين بصفة نهائية باعتباره عملا غير نظيف ومؤلم .

وكانت مثل هذه الأعمال تسبب الكثير من القلق والاضطراب للفتى موهانداس ، الذى كان يريد أن يبني حياته على الصدق والحقيقة . فقد كان يعرف أن خداع والديه ومخالفة الأوامر والنواهي التى تنص عليها

عقيدته الدينية ، تعتبر من الاعمال الشائنة التي توصف
بعدم الاخلاص وعدم الأمانة .

وكان هناك حادث آخر يتعلق بأحد أخطائه
الكبرى . فعندما كان فى الخامسة عشرة من عمره ،
سرق قطعة صغيرة من الذهب من أخيه الأكبر . وقد
تألم موهانداس كثيرا بعد ارتكاب هذه الجريمة .
وأخذ يؤنب نفسه بشدة على قيامه بهذه الفعلة الشنعاء .
وأخيرا كتب رسالة شرح فيها جريمته ، وطلب توقيع
العقاب المناسب عليه ، ووعد فى الوقت نفسه بعدم
العودة الى مثل هذا فى المستقبل .

وتقدم وهو يشعر بخجل شديد من نفسه وأعطى
الرسالة لأبيه الذى كان راقدا على فراش المرض ووقف
ينتظر . . . وقرأ الأب الرسالة بعناية شديدة ، فطفرت
الدموع من عينيه . وببطء شديد أخذ الأب يمزق
الرسالة .

لقد توقع موهانداس أن يسمع كلمات غاضبة،
ويتلقى عقاباً صارماً ، ولكن مشاعر الحب التي عمر
بها قلب الأب ، ظلت راسخة في ذهن الفتى الصغير
الذي لم ينس هذا الفضل لأبيه طوال حياته -

٥ - فى انجلترا

وفى سن الثامنة عشرة ، التحق غاندى باحدى الكليات - ولكنه لم يستمر الى بقية العام الدراسى ، لأنه لم يتجاوب مع الدروس التى كانت تلقى فى تلك الكلية - لذلك فقد نصحوه بأن يتسوجه الى انجلترا ليدرس القانون ويصبح محاميا - ولم يكن ذلك بالشئ اليسير الهين .

كان من الصعب عليه أن يترك الهند ليذهب الى بلاد أجنبية يضطر فيها أن يأكل ويشرب مع الأجانب - وكان ذلك أيضا ضد تعاليم عقيدته الدينية

وقد وقف بعض رجال الدين ضد ذهابه ، ولكن بالرغم من ذلك كله ، أبحر موهانداس الى انجلترا وهو فى سن الثامنة عشرة ، تاركا وراءه زوجة وابنا صغيرا .

وعلى ظهر السفينة ، ارتدى موهانداس لأول مرة فى حياته ثيابا أجنبية أهداها اليه أصدقاؤه . واحتفظ بشيابه الهندية البيضاء لحين الوصول الى انجلترا . وعندما وصلت السفينة الى لندن ، اكتشف موهانداس أنه الوحيد الذى يرتدى ملابس بيضاء خفيفة ، مع أن الوقت كان فى نهاية الخريف وبداية برد الشتاء . ولم يستطع موهانداس أن يغير ملابسه لأن حقائبه أصبحت معدة للنزول من على ظهر السفينة .

وفى الأيام الأولى لاقامته فى لندن ، صادفته مشكلتان طريفتان . وكانت المشكلة الأولى منهما تتعلق ببحثه عن الطعام المناسب . فعلى عكس معظم الهنود الذين كانوا يعيشون فى انجلترا ، أصر غاندى على التمسك بعقيدته الدينية التى تحرم أكل اللحوم . ولم يكن هذا بالأمر السهل فى بلد كانجلترا . .

وكم كان سروره عندما اكتشف مطعما للنباتيين
لا يقدم لزيائنه أى طعام يتضمن لحما من أى نوع كان .
وعلم أن كثيرين من الانجليز نباتيون لا يأكلون اللحم
الأسباب صحية . وقد سره كثيرا أن يرى العلم يؤيد
تعاليم عقيدته الدينية فى تحريم أكل اللحوم . ثم
تعلم فيما بعد أن يشتري الخضراوات من السوق
ويقوم بطبخها لنفسه فى حجرته .

أما المشكلة الثانية فتتعلق بأنه كان يرغب فى أن
يلعب دور « الجنتلمان » الانجليزى فهو وإن كان لا
يستطيع أن يأكل ما يأكله الجنتلمان ، إلا أنه يستطيع
أن يلبس مثل ملابسه ويتصرف مثل تصرفاته .
فاشتري ملابس جديدة وقبعة عالية من الحرير ، وأرسل
خطابا لأخيه الأكبر يطلب منه أن يرسل اليه سلسلة
ذهبية للساعة . وأخذ ينفق جزءا كبيرا من وقته كل
صباح أمام المرأة لكى يرتدى ملابسه ويسرح شعر
رأسه الكثيف .

وبناء على نصيحة بعض الاصدقاء ، بدأ فى تعلم

الرقص الغربى ، وتلقى دروسا فى اللغة الفرنسية ،
كما بدأ فى تعلم العزف على احدى الآلات الموسيقية ،
وكيفية القاء الخطب . ولكن هذا كله لم يغنه شيئا ،
واخذت أموره تتبخر بسرعة . وفى نهاية الشهر
الثلاثة الاولى ، رأى أنه لم يستفد من وقته بطريقة
جيدة ، فتوقف عن هذا كله ، وبدأ فى دراسة
القانون .

وفى ذلك الوقت أيضا بدأت قراءته الحسرة فى
العقائد والأديان . وعندما طلب منه بعض الاصدقاء أن
يساعدهم على فهم كتاب « الجيتا » وهو الكتاب المقدس
فى العقيدة الهندوسية ، وجد فى ذلك سعادة غامرة ،
وازداد ايمانه بهذا الكتاب ، حتى أصبح يعتقد أنه
الكتاب الوحيد الذى يتضمن أفضل طريقة لمعرفة
الحقيقة .

ثم بدأ فى قراءة « الانجيل » . وقد سره كثيرا
أن يدرك أن بعض تعاليم المسيح تشبه الى حد بعيد
بعض تعاليم كتاب « الجيتا » .

ومن خلال قراءته لكتساب المؤلف الانجليزي
« كارليل » تمكن من معرفة الكثير عن محمد رسول الله
وأعجب كثيرا بعظمته وشجاعته وبأسلوب الحياة
البسيطة التي كان يحياها .

ومن نتيجة هذه القراءات والدراسات تبين له أن
الحقيقة التي يحبها لا توجد كلها في ديانة أو عقيدة
واحدة .

٦ - العودة للهند

وبعد أربع سنوات متوالية من دراسة القانون ، اجتاز غاندى الامتحان النهائى وحصل على الشهادة فى سنة ١٨٩١ . وقرر العودة الى الهند .

وبمجرد وصوله أخبره بعض أصدقائه بنخبر موت أمه . وكن لهذا الخبر وقع الصدمة الشديدة فى نفسه . فحزن كثيرا مثلما حزن لموت أبيه قبل ذهابه الى انجلترا .

ولم تكن السنوات القليلة التالية لوصوله الى الهند سنوات سعيدة . حيث وجد أن عمله كمحام عمل لا

يسره ، وأدرك أن هذه المهنة لا تناسبه ، وفي إحدى
المرات بينما كان في المحكمة ، كاد يغمى عليه ، وعندما
جاء دوره في المرافعة لم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة .
ولذلك فلم يكن هناك مناص من التغيير .

وسنحت فرصة التغيير عندما طلب منه التوجه الى
جنوب أفريقيا للتعافى مع أحد أثرياء التجار الهنود الذي
كان يحاول الحصول على مبلغ كبير من المال من أحد
أفراد أسرة غاندى . وفي سن الرابعة والعشرين ، توجه
غاندى الى « دربان » في جنوب أفريقيا .

٧ - فى جنوب أفريقيا

واكتشف غاندى بمجرد وصوله الى جنوب أفريقيا أن أحوال معظم الهنود الذين يعيشون هناك ليست على ما يرام ، ويعانون ظروفًا سيئة وصعبة أظهرها التفرقة العنصرية بينهم وبين البيض . وقد عرف غاندى هذه الحقيقة المؤلة عندما ذهب الى المحكمة ، وكان يلبس على رأسه عمامة هندية برغم أنه كان يرتدى ملابس أجنبية . فأمره القاضي بأن يخلع تلك العمامة ، ورفض غاندى أن يخلع عمامته واضطر الى مغادرة المحكمة . وسرعان ما انتشرت حكاية هذه العمامة فى جميع أنحاء جنوب أفريقيا .

وكان الهنود الذين تركوا أوطانهم بحثا عن فرص
للعمل في أفريقيا ، يعتبرون أدنى مرتبة من المستوطنين
البيض ، وكانوا يسمون باسم « كولي » أى غير المهرة .

وبعد أيام قليلة أوفده موكله التساجر الهندي
« عبد الله شيت » الى مدينة أخرى بجنوب أفريقيا لانتهاء
بعض الأعمال . فحجز تذكرة بالدرجة الأولى في قطار
السكك الحديدية المسافر الى تلك المدينة . وفي أثناء
السفر ، استاء أحد الرجال البيض من وجود غاندى
بعربة الدرجة الأولى المخصصة للبيض وحدهم . فقام
الرجل الأبيض باستدعاء عامل القطار الذى طلب من
غاندى مقادرة العربة فورا . ولكن غاندى اجاب بأنه قد
اشترى تذكرة بالدرجة الأولى ومن حقه أن يركب بعربة
الدرجة الاولى بناء على ذلك . وعندئذ تدخل أحد رجال
الشرطة وأجبره بالقوة على مغادرة القطار .

وفي اليوم التالى حدث شيء أسوأ من ذلك . فعندما
أراد أن يركب إحدى عربات السفر التى تجرها الخيول ،
رفض البيض ركوبه بداخل العربة وأجبروه على الجلوس
بخارجها جوار السائق . ومع ذلك رفض حارس العربة

أن يجلس غاندى فى هذا المكان واعتدى عليه بالضرب .
وكاد أن يقضى عليه لولا تدخل بعض الركاب البيض
الذين أوقفوا الحارس عند حده .

وعندما وصل غاندى الى المدينة توجه الى أحد
الفنادق ليحجز حجرة يقيم فيها ، الا أنه تلقى صدمة
شديدة حين رفض موظفو الفندق اعطائه الحجرة بل
وقاموا بطرده من الفندق فوراً . وهكذا توالى سلسلة
من الحوادث والاهانات التي جعلت غاندى مقتنعا تماما
بأن الهنود فى حاجة الى من يساعدهم على الحياة الكريمة
فى أفريقيا .

ولم يكن غاندى يرى فى نفسه القدرة أو الصلاحية
للقيام بهذا الدور ، لذلك فقد ارضى لنفسه أن يعيش
كما يعيش أفقر فقراء الهنود فى جنوب أفريقيا . وكان
يسافر فى عربات الدرجة الثالثة كلما اقتضى الأمر
الى أى مكان . ومع ذلك فقد كان يحس بالألم والمرارة
حين يرى الهنود من أهل وطنه وهم يعاملون مثل هذه
المعاملة المهينة . فحاول بقدر ما يستطيع أن يواجه هذا
الظلم ، وهذه المعاملة المتعالية التي لا تعرف العدل .

وبعد فترة من الوقت ، أدرك غاندى أن من الأفضل بالنسبة لموكله التاجر الهندى وبالنسبة لخصمه وهو تاجر هندى آخر ، أن يتفق الخصمان فيما بينهما ويصفيا مشاكلهما بطريقة ودية ودون اللجوء الى المحاكم . وبعد مجهود كبير استمر شهرًا ، استطاع غاندى أن يوفق بين التاجرين وجعلهما يتفقان على تحديد المبلغ المطلوب دفعه ، ويتفقان أيضا على طريقة دفع هذا المبلغ .

وكان هذا النجاح سببا فى اقتناع غانسى بأن معظم المشاكل التى تنشأ بين الناس ، يمكن لوسطاء الخير أن يحلوها بسلام وبطريقة ودية

وفى خلال نفس السنة قابل غاندى مجموعة من الهنود المسيحيين الذين طلبوا منه اعتناق المسيحية مثلهم ، ومجموعة أخرى من الهنود المسلمين الذين كانوا يحذونه على اعتناق الاسلام . وكان غاندى قد قرأ كثيرا من الكتب التى تتعلق بكل من الانجيل والقرآن . ولكنه كان فى نفس الوقت يقرأ الكتب التى تتعلق بديانته الهندوسية ، وكان يجد فى هذه الكتب الأخيرة سعادة عميقة وسلاما تاما .

رجال عظام .. ونساء عظيمات ٣٣

وفى نهاية تلك السنة ، انتهى العمل مع موكله
« عبد الله سبيت » وقرر غاندى أن يعود الى الهند .
وفى حفلة العشاء التى اقيمت لتوديعه فى مدينة دربان ،
ناقش المحتفلون به قانونا جديدا أصدرته سلطات جنوب
أفريقيا لتقييد حرية الهنود وحرمانهم من بعض الحقوق .
ونتيجة لهذا النفاس قرر المجتمعون أن يبقى غاندى فى
جنوب أفريقيا ، ليعمل من أجل حقوق الهنود الذين
يعيشون هناك .

وهكذا بدأت عشرون سنة من العمل الشاق
لصالح الهنود فى جنوب أفريقيا .

٨ - بداية كفاحه

وبعد انقضاء السنوات الثلاث الأولى ، عاد غاندى الى الهند لزيارة استمرت بضع شهور انتهت بأن عاد الى جنوب أفريقيا مرة أخرى مصطحبا معه زوجته وابنيه . وفى أثناء تلك الزيارة حاول غاندى بكل الطرق ان يشرح للشعب الهندى مدى الاهانات والمعاملة السيئة التى يعانيتها الهندود الذين يعيشون فى جنوب أفريقيا . وألقى كثيرا من الخطب وكتب كثيرا من المقالات حول هذا الموضوع . ولكن أخبار هذه الخطب والمقالات وصلت الى المستوطنين البيض فى اقليم ناتال بجنوب

أفريقيا قبل وصول غاندى الى هناك بمدة كافية .
وما أن وصل غاندى ونزل من السفينة التى أقلته ،
حتى تعرف عليه بعض المستوطنين البيض فأخذوا
يصيحون : « غاندى . . غاندى !! » . فتجمع على الفور
جمهور كبير من هؤلاء المستوطنين وأخذوا يقذفونه
بالحجارة والبيض وبدأوا يضربونه ضربا مبرحا . وكادوا
أن يقضوا عليه فعلا لولا شجاعة امرأة انجليزية هى فى
نفس الوقت زوجة لرئيس الشرطة . لقد كافحت هذه
المرأة الشجاعة لحماية غاندى حتى وصل بعض رجال
الشرطة وأدخلوه الى مناهم . ومع ذلك فقد استمر
تظاهر المستوطنين البيض وانظروا خروجه . ولكن
غاندى خرج من الباب الخلفى للمبنى متنكرا فى زى
رجل شرطة من الهنود ، فى نفس الوقت الذى كان
يحاول فيه رئيس الشرطة تهدئة المستوطنين المتجمعين
امام البوابة الرئيسية للمبنى .

ومن المستحيل حصر جميع الحوادث التى وقعت
خلال سنوات اقامة غاندى فى جنوب أفريقيا لمساعدة
الهنود وتحسين أحوالهم وحث الحكومة على معاملتهم

بطريقة عادلة . لقد رفض أن يشغل وظيفة تدر عليه
أموالا طائلة وذلك من أجل مساعدة الفقراء واليؤساء
الذين تدر حياته من أجلهم .

وكانت زوجته تساعد في جميع أعماله ، ومؤمنة
بجميع أهدافه ، وتشجعه على البذل والعطاء أكثر
وأكثر .

ومن خلال كفاحه في جنوب أفريقيا ، اكتسب
غاندى إيمانا لا حد له ببعض طرق الكفاح التي اتبعها
فيما بعد ضد المستعمرين الانجليز في وطنه الأم .
لقد آمن غاندى بالقوة الروحية الكامنة في الانسان .
تلك القوة التي تمكنه من مواجهة الشر ومكافحة القوة
، لكن ليس بالبغض ولا بالكراهية واستعمال العنف ،
رأيا بالحب وبالهسوء . ورفض اطاعة الأوامر
والقوانين الجائرة .

وكان على كل من يعتنق هذه المبادئ من أتباع
غاندى ، أن يمتنع تماما عن العمل مع الحكومة . وأن
يمتنع أيضا عن طاعة أى قانون ظالم . وعندئذ لن

تستطيع الحكومة أن تفعل شيئا ، أو ستصبح على الأقل
محدودة القدرة على مواجهة مثل هذا الموقف .
وقد تعرض غاندى للمسجن فى مرات كثيرة ، ومع
ذلك فقد ظل أتباعه ينفذون مبادئه وتعاليمه .
وعندما ترك غاندى جنوب أفريقيا فى عام ١٩١٤ ،
كانت أحوال الهنود الذين يعيشون هناك قد تحسنت
كثيرا عما كانت عليه قبل حضور غاندى الى تلك البلاد .

٩ - العمل من أجل فقراء الهند

وما أن وصل غاندى الى الهند فى بداية الحرب العالمية الأولى ، حتى وجد صدى طيبا لكفاحه فى جنوب أفريقيا ، فقد كان شعب الهند يتابع هذا النضال باعجاب كبير ، واعترفوا به على الفور كقائد وزعيم ، وأطلقوا عليه لقب « المهاتما » ومعناه الروح الكبير .

واختار غاندى محل اقامته بالقرب من مدينة « أحمد آباد » وأسس هناك معتزلا دينيا سماه « الأشرام » ودعا شعب الهند للانضمام اليه بصرف النظر عن أجناسهم أو عقائدهم الدينية . ولا يطلب منهم

سوى الالتزام والايمان بسيادى معينة هي :

- ١ - أن يقولوا الصدق دائما .
- ٢ - ألا يحاربوا أو يكرهوا الناس الآخرين .
- ٣ - ألا يأكلوا الا القدر الضرورى من الطعام الذى يكفى للمحافظة على صحتهم .
- ٤ - ألا يمتلكوا شيئا لا ضرورة له .

وكانت طبقة « المنبوذين » تعتبر أخط الطبقات طبقا للعقيدة الهندوسية . ولم يكن مسموحا لهم الا بالعمل فى أخط الأعمال . ومع ذلك فقد سمح غاندى للمنبوذين أن ينضموا الى « الأشرام » مثلهم مثل غيرهم سواء بسواء .

ولكن عندما كانت تنضم احدى عائلات المنبوذين الى جماعة غاندى ، كانت المشاكل تبدأ على الفور . فيظلوا منبوذين من بقية افراد الجماعة ، كما أن أثرياء الهندوس الذين كانوا يقدمون بعض الأموال لمساعدة الجماعة امتنعوا عن ارسال مساعداتهم حتى لا تصل الى

هؤلاء المنبوذين • فماذا فعل غاندى لمواجهة هذا الموقف ؟

قرر غاندى على الفور أن يضع خطة لنقل جميع أعضاء جماعته وهو على رأسهم الى الأحياء التى يعيش فيها المنبوذون • وأن على أعضاء الجماعة أن يكسبوا عيشهم بأداء نفس الأعمال المنحطة التى فرضت على هؤلاء المنبوذين •

وفى أثناء قيام غاندى بأعداد تلك الخطة جاء أحد كبار التجار المسلمين ، واستأذنه فى أن يقبل بعض الأموال كمساعدة منه للجماعة • وفى اليوم التالى أحضر هذا التاجر المسلم أموالا تكفى لمساعدة الجماعة عاما بأكمله • وقال غاندى فى ذلك : « ان الله قد ساعدنا فى اللحظة الأخيرة ! » •

وكانت هذه أولى الخطوات - وتبعتها فيما بعد خطوات كثيرة - لتغيير وتحسين وضع المنبوذين فى الحياة الهندية •

ومند هذا الوقت وحتى آخر أيام حياته ، كان

المهاتما غاندى لا يرندى الا ثوبا من القطن المحلى ، غزل
ونسج فى بيته .

وكان يؤمن ايمانا مطلقا بأن أهم هدف لحياته ،
هو مساعدة الفقراء ، وتحسين أحوال السكادحين من
الناس ، ومساعدة شعبه بكل ما يمكنه ويستطيعه .
ولكن بشرط واحد ، هو عدم استعمال العنف .

وذات يوم ذهب ليرى الأحوال السيئة التى يعيش
فيها مجموعة من فقراء الفلاحين الذين يعملون فى احدى
المزارع ، فالتف حوله مئات ومئات من الناس . . . جاءوا
ليروا هذا الصديق الذى يريد مساعدتهم . . . وجاء
رجال الشرطة وأمروه بالانصراف ، ولكنه أعلن رفضه
لتنفيذ الأمر ، فقبضوا عليه . وفى المحكمة شرح للقضاة
السبب فى رفضه لتنفيذ الأمر ، وطلب من المحكمة ان
توقع عليه عقوبة عدم تنفيذ الأمر وعدم طاعة القانون .
ولكن المحكمة لم تستطع أن تفعل شيئا أمام هذا المنطق ،
فأمرت بإطلاق سراحه .

واعتبرت هذه المحاكمة أول خطوة لاتجاه جديد

ذاع وشاع وأصبح مألوفاً في كل أنحاء الهند ، وهو
رفض الأوامر والقوانين الجائرة مع الاستعداد الهادئ
لتحمل عقوبة هذا الرفض أو العصيان .

١٠ - مسيرة نحو البحر

ورويدا رويدا بدأ شعب الهند يدرك تعاليم غاندى
التي تدعو الى مكافحة القوة بالحب ، بدلا من مكافحة
القوة بالقوة . وفى سنة ١٩٣٠ وقعت حادثة مشهورة
سميت باسم « مسيرة الملح » !

أصدرت الحكومة قانونا بمنع الناس من صناعة
الملح من ماء البحر ، وذلك لاجبار الناس على شراء الملح
من الحكومة .

واعتبر غاندى هذا القانون ظلما وجائرا ويجب
على الهنود أن يرفضوه . وأعلن للشعب أنه سيقود



غاندى . . . أثناء المسيرة .

مسيرة من أتباعه منجها نحو البحر الذي يبعد نحو مائتى ميل . وهناك سيعلم رفضه لهذا القانون ويصنع بنفسه ملحا من ماء البحر .

وعلى مدى ثلاثة أسابيع متصلة ، وعلى مسمع من جميع أنحاء العالم الذي كان يتتبع أنباء تلك المسيرة أولا بأول ، وبينما كانت الاضطرابات تشتعل فى معظم أنحاء الهند ، واصل المهاتما غاندى مسيرته بثبات وليس على جسمه الضئيل سوى الثوب القطنى الأبيض الذى غزل خيوطه ونسجها بيديه .

وعلى طول الطريق كانت جماهير الهنود تخرج من قراها للانضمام الى تلك المسيرة . . . حتى وصلوا جميعا الى شاطئ البحر . وهناك صنع غاندى بنفسه حفنة من الملح رمزا لمخالفة القانون الجائر . وأعلن أن الله قد وهب البحر للناس ولا يمكن لحكومة من البشر أن تحول بين الناس وخير البحر !

وبطبيعة الحال فقد سجنته الحكومة لمخالفته لقانون الملح . ولكنه خرج من السجن بعد العقوبة ليواصل كفاحه من أجل شعب الهند .

١١ - حكومة ذاتية لشعب الهند

وبدا ب الهند للحصول على الاستقلال
وتكوين حكومة من أبناء الشعب دون تدخل من
المستعمرين الانجليز . وكتب غاندى العديد من المقالات
ضد الحكومة البريطانية التي وقفت ضد استقلال الهند
وحريتها . كما كتب المقالات وألقى الخطب نحث الهنود
على أن يكونوا أهلا للحكومة الذاتية وأن يواصلوا
كفاحهم بدون استخدام العنف حتى ولو استخدم
المستعمرون العنف ضدهم . بل ووقف بحزم ضد
أعمال العنف التي كانت ترتكبها بعض فئات الشعب .
وأودع غاندى فى السجن عدة مرات بسبب ما كان

يعلمه أو يكتبه أو يفعله . وعندما قام بعض أتباعه باستخدام العنف ضد الحكومة ، أعلن غاندى صيامه واضرابه عن الطعام حتى الموت اذا لم يتوقف هذا العنف .

وهكذا أصبح أتباعه يزدادون كل يوم عددا وقوة . وكان الناس يتجهرون بأعداد غفيرة لرؤيته وسماع خطبه . كما أن أية مقالة كان يكتبها كانت تقرأ على الفور في جميع أنحاء الهند . ووفد اليه زعماء الهند وقادة الشعب الهندي من كل الأرجاء ، بل ووفد اليه الزعماء المناضلون ضد الإستعمار من مختلف شعوب العالم .

لقد كان الكفاح الذى قاده هذا الزعيم العظيم من أجل حصول بلاده على الاستقلال شاقا ومضنيا ولكنه تكمل فى النهاية بالنجاح . . وبعد كل هذه السنوات الطويلة من الأحزان والمآسى ، صدر اعلان استقلال الهند . وكان من المفروض أن يكون الرجل الذى قاد هذا الكفاح حتى النصر من أسعد السعداء . ولكن الحال كان على العكس .

كان غاندى يشعر بالألم والمرارة بسبب الخلافات
والاضطرابات التى نشبت بين المسلمين والهندوس
والتي كانت سببا فى تقسيم الهند الى دولتين : الهند
للهندوس وباكستان للمسلمين . وشعر غاندى بكل
الألم والمرارة نتيجة لهذا التقسيم .

١٢ - عندما اقتربت النهاية

نشبت اضطرابات فظيعة في معظم أنحاء الهند ،
خصوصا في المناطق والولايات التي كان يعيش فيها
الهندوس والمسلمون جنبا الى جنب .

شب القتال بين الطائفتين . وقتل مئات من
الرجال والنساء والأطفال من الطرفين . وأصبح مئات
الالوف من الناس بلا مأوى ويتعرضون لمختلف أنواع
العذاب والعناء .

وبينما كان هذا الصراع الرهيب على أشده في
مختلف مناطق الهند ، كانت المنطقة التي يعيش فيها

غاندى عادة وتوقف فيها صراع المسلمين والهندوس
تماما ، وذلك بعد أن أعلن غاندى صيامه واضرا به عن
الطعام حتى يتوقف هذا الصراع . ونظرا لأن غاندى
كان محبوبا ومحترما من جانب كسل من المسلمين
والهندوس ، فقد توقف الصراع بالفعل .

ولكن حياة هذا الزعيم العظيم كانت قد اقتربت
من نهايتها . ففي يوم ٣٠ يناير سنة ١٩٤٨ ، وبينما
كان يمشى ببطء خارجا من بيته متجها الى معبد قريب
لأداء الصلاة ، ووسط جمهور حافل اجتمع لمشاهدته
وللاشتراك معه فى صلاته ، اندفع شاب « هندوسى »
من بين الناس وأطلق الرصاص على غاندى ، فلما منه
أنه يقف الى جانب المسلمين أكثر من وقوفه الى جانب
الهندوس .

وبعد دقائق خرج أحد الرجال من البيت الذى نقل
اليه الزعيم المصاب ، وأعلن للناس الذين تجمعوا : أن
غاندى قد مات ؟

وفى نفس الليلة ، أعلن الزعيم الهندى « باتنديت
نهرى » من اذاعة الهند :

« لقد انطلقا النور من حياتنا .. وحل الظلام في كل مكان .. لقد رحل الأب الروحي لامتتنا .. ان خير صلاة نقدمها لروحه هي أن نتمسك بأهداب العقيق .. وأن نواصل رسالته النبيلة التي عاش من أجلها ومات من أجلها .. »

وبعد أيام قليلة من هذا الحادث ، وطبقا لتعاليم الديانة الهندوسية ، أحرق جثمان غاندي أمام جمهور غفير ، ونثر رماده فوق أنهار الهند المقدسة -

وهكذا انتهت حياة رجل من أعظم الرجال في هذا العالم .

فلورنس نايتنجيل

« حاملة الصباح »

هل مرضت يوما ودخلت الى المستشفى ؟ ..
أو هل زرت يوما صديقاً لك مريضاً في إحدى
المستشفيات .. ؟

اذن .. لا بد أنك قد لاحظت الهدوء في هذه
المستشفى ، وأن كل شيء فيها نظيف ومرتب .. !
ولا بد أنك لاحظت أيضاً عدداً من الممرضات في
أرديتهن البيضاء ، وهن ينتقلن من سرير الى سرير ،
ليرعين المرضى ، وينفذن أوامر الأطباء ..

هؤلاء الممرضات يبذلن جهوداً كبيرة ، وتراهن
دائماً هادئات ودودات ، يعملن كل ما في وسعهن لجعل
حياة المرضى أكثر راحة ، وأقل ألماً ..

وعندما يغادر الانسان المستشفى ، يبقى في



فلورنس نایتنجیل • ۵۵

ذاكرته ما لاقاه هناك من مهارة الأطباء ورعاية
المرضات .

ولكن المستشفيات لم تكن دائما في مثل هذه
الحال . ولم تكن المرضات على مثل ما هن عليه الآن
من نظافة ومعاونة وسلوك حسن .

في الماضي كانت المستشفيات مختلفة تماما عما
هي عليه الآن ، وكان الناس يخافون دخولها .

أما السبب في هذا التغيير العظيم الذي حدث في
نظام المستشفيات ، فيرجع بصفة رئيسية الى فتاة
شابة ، اسمها « فلورنس نايتنجيل » وكانت تسمى
أيضا « حاملة المصباح » .

١ - فى بداية حياتها

فى سنة ١٨٢٠ ، كان مستر ومسز نايتنجيل -
والدا فلورنس - يقومان بجولة فى أوربا . وفى مدينة
فلورنسا بإيطاليا ، وضعت الأم طفلة أطلقوا عليها اسم
« فلورنس » وهو اسم للمدينة الإيطالية باللغة
الانجليزية .

وكان للوالدين ابنة أخرى عمرها سنتان وقد
سميها « بارثينوب » أو « بارثى » وهو اسم مدينة
نابولى بإيطاليا باللغة اليونانية . ذلك لأن هذه الابنة
قد ولدت فى الأخرى بتلك المدينة .

وبعد مولد الابنة النائية « فلورنس » عادت الأسرة كلها الى وطنها في انجلترا .

كان الوالدان من الطبقة الراقية . ولكن يبدو انهما كانا على غير وفاق مع بعضهما . كانت الأم سيدة جميلة ، مرحة ، نتصف بشيء من الأنانية ، وتحب الحياة الممتلئة بالمباهج والأشياء السارة .

أما الأب فكان رجلا لطيفا طيبا ، ولكنه كان يحب الكسل ، ومقتنعا بقضاء أيامه في صيد الحيوانات وصيد الأسماك ، أو في قراءة الكتب والسياسة في مختلف البلدان . وكان ثريا لديه من الأموال ما يغنيه عن القيام بأي عمل جاد .

وبعد أن نمت الوليدة « فلورنس » وأصبحت طفلة صغيرة . عاشت حياة بعيدة عن السعادة . كانت مختلفة عن البنات الصغيرات اللاتي يماثلنها في العمر في أشياء كثيرة .

والغريب أنها كانت لا تشعر بالسعادة ، رغم أن بيتها كان حافلا بكل المسرات . فلديها ولدي أختها

مجموعة من الحيول والكلاب والقطط والطيور الملونة .
وكانت فلورنس تشعر بأن كل هذه السررات لا تهمها ،
وترى أن الحياة في بيت أبيها ليست الحياة التي تريدها
لنفسها .

كانت تتمتع بقدر كبير من الخيال ، فتهرب دائما
الى عالم الأحلام . . . وكانت تؤلف قصصا تحكيها
لنفسها ، وكانت تعطي لنفسها دور البطلة في تلك
القصص . . . ولشدة انغماسها في عالم الخيال ، أصبحت
تحس بعدم وجود أية علاقة تربطها بأمها .

وكانت الأختان « بارثي » و « فلورنس » تتلقيان
دروسهما في البيت على يدي الأب واحدى المدرسات التي
كانت تحضر الى البيت لتعليم البنين . وكان الأب
يدرس لهما أصول اللغة والتاريخ . ولاحظ الأب منذ
البداية أن « بارثي » غير متقبلة على تلقى الدروس وأنها
كانت تفضل البقاء مع أمها في غرفة المعيشة ، وذلك
على عكس « فلورنس » التي كانت تفضل البقاء مع
أبيها في المكتبة لتلقى المزيد من العلم والمعرفة . وكا
لهذا الانقسام الذي حصل في الأسرة نتائج غير سارة

ويمكننا الآن أن نعرف الكثير عن المشاعر
والإحاسيس الداخلية التي كانت تعتمل في نفس
« فلورنس نايتنجيل » لأنها كانت حريصة - منذ
صغرها - على كتابة أفكارها ووصف مشاعرها . كانت
تصب على الورق كل ما كان يدور بعقلها وكل ما يعتمل
في صدرها . وكانت تكتب على كل أنواع وأشكال
ومقاسات الورق وقصاصاته . وما زال الكثير من هذه
الورقات محفوظة حتى الآن ، ويمكن قراءة ما دوتته
فلورنس من أفكار ومشاعر في هذه السنين المبكرة ثم
بعد ذلك في مختلف مراحل عمرها .

٢ - أصوات تناديهـا

وفى سن السابعة عشرة ، حدث شىء هام جدا
فى حياتها ~ شىء يشبه ما حدث من قبل للفتاة
الفرنسية « جان دارك » . ففى احدى الأوراق التى
كتبتها فلورنس فى هذه السن نقرأ ما يلى : « فى ٧
فبراير ١٨٣٧ سمعت صوتا ينادينى من السماء ويدعونى
لكى أكرس حياتى لخدمة الله » .

ولم يكن الصوت حلما من الأحلام ، وإنما كان
صوتا حقيقيا وصفته فلورنس بأنه كان صوتا عاليا
ينطق الكلمات بوضوح .

وربما نقول ان ذلك ليس غريبا بالنسبة لفتاة صغيرة في السابعة عشرة من عمرها وتعيش في عالم من الخيالات والأحلام . ولكن فلورنس بعد أربعين سنة من هذا التاريخ كتبت في مذكراتها أنها سمعت هذا الصوت أربع مرات خلال حياتها .

ولكن هذا الصوت الذي دعاها الى أن تتركس حياتها لخدمة الله ، لم يوضح لها كيف تقوم بهذه الخدمة ، أو ما هو نوع هذه الخدمة بالضبط وكيفية ومكان أدائها . . . وكانت فكرة التمريض بعيدة تماما عن عقلها في ذلك الوقت . . . برغم أنها كانت تحرص تماما على أداء دور الطبيب لعرائسها ودماها ، كما كانت تعتنى بصحة حيواناتها وطيورها ، وتعطف كثيرا على الرضع والأطفال الصغار .

وكتبت فلورنس أيضا ، أنها أصبحت تحسن بالسلام النفسى بعد سماع هذا الصوت ، وأنها على يقين من سماع هذا الصوت مرة أخرى .

٣ - التجارب الأولى

مرت سنوات عديدة قبل أن تتضح الأمور .
وكانت سنوات كئيبة صعبة . . لقد سافرت الى أوروبا
فترة ، ولكنها كانت لا تستريح الا في لندن . برغم
ما فيها من التعاسة وسوء التفاهم بينها وبين أمها
وأختها .

وحدثت مناسبتان جعلتاها تؤمن بأن طريق
حياتها هو الخدمة في المستشفيات والعناية بالمرضى .
فقد مرضت جدتها لأمها فقامت برعايتها . كما مرضت
سيدة عجوز أخرى كانت تخدم في المنزل لمدة طويلة .

فقامت برعايتها هي الأخرى . ثم بدأت ترعى المرضى الآخرين من أهالى القرية التى كانت تعيش فيها .

وتعلمت فلورنس من هذه التجارب شيئا هاما ، هو أن التمريض أمر قاصر على النساء فقط ، ويجب على السيدة أو الفتاة التى تمارس التمريض أن تكون طيبة وعطوفة ولا تمل من مساعدة المرضى .

وقد اقتنعت فلورنس أيضا بضرورة أن تكون الممرضة مؤهلة ومدرّبة على القيام بواجباتها وأن تعرف أيضا متى وكيف تقوم بهذه الواجبات . ولكن الأهم من هذا كله هو كيف تحصل هى نفسها على كل هذا التأهيل والتدريب .

وفجأة خطرت بذهنها فكرة تتعلق بحل هذا الموضوع . فهناك على مسافة غير بعيدة عن بيئها توجد إحدى المستشفيات ، ومدير هذه المستشفى صديق لعائلتها ، وأن عليها الآن أن تطلب من العائلة أن تسمح لها بالعمل فى هذه المستشفى لمدة ثلاثة شهور تتعلم فيها التمريض .

وما أن أعلنت فلورنس رغبتها هذه لأسرتها حتى
هبت عاصفة عاتية من التعاسة . فقد استاء الأب
وتكرر صفوه . فهل بعد كل هذا الجهد الذى بذله
فى تعليمها .. وكل هذه السياحات فى أوروبا .. وكل
هذه الملابس الجميلة الفاخرة التى اشتراها لها من
باريس .. تأتى هذه الشابة الغريبة وتقول أنها تنوى
أن تصبح ممرضة .. ١٩

أما أمها فقد وقع عليها هذا الخبر وقع الصاعقة ..
وأصابتها نوبة من الغضب ، ثم انفجرت باكية ..

يا للمسكينة فلورنس .. لم يعد هناك أحد فى
صفها .. كلهم أصبحوا ضدها .. لقد أحسست بالضيق
وفقدت شجاعته .. وكتبت تقول فى هذه الفترة :

« لم أعد أجد مبررا لاستمرار الحياة .. ولن أجد
شيئا آخر لأعمله .. انى أقل شائنا من التراب ..
انى لا شئ على الإطلاق .. ! »

٤ - المستشفيات فى الماضى

قد يكون من السهل أن نلوم والذى فلورنس لوقوفهما ضد رغبة ابنتهما ، ولكن يجب ألا نتسرع فى الحكم عليهما بذلك . ففى سنة ١٨٤٥ كانت المستشفيات من الأماكن المخيفة . مملوءة بالقذارة والفوضى ، ومزدحمة بالمرضى والآلام ، وتنبعث منها روائح كريهة لا تطيقها الأنوف .

هناك نحو خمسين أو ستين سريرا متجاورة بين كل منها مسافة ضيقة لا تتجاوز نصف المتر . وليس فيها سوى مدفأة واحدة فى أحد الأركان تستخلم فى

فصل الشتاء . وجميع النوافذ مغلقة . وكان المرضى
من أفقر الفقراء الذين يعيشون في أفقر أحياء المدينة .
وكانوا يلجأون الى المستشفى وهم في منتهى القذارة ،
ويبقون بها وهم في منتهى القذارة ، ثم يخرجون منها -
ان بقوا على قيد الحياة - وهم في منتهى القذارة .
وكثيرا ما كان المرضى يتصارعون ويتشاجرون فيما
بينهم ، ويسكرون بشرب الخمر الرخيصة ، وكثيرا
ما كان البوليس يتدخل لفض المنازعات واقرار النظام .
وبالاضافة الى كل هذه الأشياء السيئة ، هناك
أسوأ الأشياء على الإطلاق . . المرضات ! . . ومن
نساء جاهلات لا يعرفن شيئا عن التمريض . . أخلاقهن
سيئة ويسكرن بشرب الخمر الرخيصة طول الوقت .
وتقول فلورنس ان رئيسة المرضات في إحدى
المستشفيات الكبيرة ، ذكرت لها أنها لم تر طوال
حياتها ممرضة لا تشرب الخمر حتى تسكر وتفقد وعيها !
ومرت ثمانى سنوات بعد أن أعلنت فلورنس
رغبتها في العمل كممرضة ووقوف أسرتها ضد هذه

الرغبة .. وكانت سنوات صعبة ، لأنها ما زالت مصرة
على العمل كمرضة . ورفضت بالتالى أن تتزوج من
شاب كانت تحبه ويحبها ، اذ كيف تتزوج وتترك
« الخدمة » التى دعاها اليها صوت من السماء .

وخلال تلك السنوات ، لم تغب المستشفيات عن
ذهنها أبدا .. قرأت عنها كل ما وصلت اليه من
الكتب والتقارير . وتعلمت من المرضى مظاهر وصفات
الأمراض التى كانوا يعانونها . وكانت تقوم فى
الصباح الباكر - حتى فى أيام الشتاء الباردة .. لكى
تواصل قراءتها عن المستشفيات وأحوالها السيئة
المتردية ، ولكى تزيد من حصيلتها من المعرفة بمختلف
أنواع الأمراض ، ثم تنضم بعدئذ الى أسرتها لتعيش
معهم الحياة العائلية العادية .

٥ - بداية تحقيق الأمل

وبينما كانت الأسرة فى زيارة لألمانيا فى احدى
المرات ، وبدون اذن من والديها ، عملت فلورنس فى
احدى المستشفيات ٠٠ وكانت فى كل يوم تزدد
معرفة وخبرة بأحوال المستشفيات وأحوال المرضى .
وفى الوقت نفسه كانت تزدد وثوقا بنفسها وبقينا
بأن الأمل فى تحقيق رغبتها ليس بعيد المنال .

وفى ربيع عام ١٨٥٣ ، دعيت فلورنس للإشراف
على ملجأ للعجائز من النساء الفقيرات اللاتى لا يملكن
أجر العلاج بالمستشفيات . وكانت الجماعة التى تدير

هذا الملجأ قد قررت نفل هذا الملجأ الى بيت آخر ،
وكانت في حاجة الى متطوعة لتقوم بهذا العمل ،
ولتصبح مشرفة عامة على الملجأ .

وبدون موافقة أهلها ، اتفقت فلورنس على أن
تقوم بهذا العمل دون مقابل ، ولكن بشرط أن توافق
الجماعة على تنفيذ ما تراه وتقرره .

وكان أبوها قد خصص لها خمسمائة جنيه سنوياً
كمصروف شخصي لها . وقد ساعدها في أن تبدأ
عملها الشاق على الفور . .

أصبحت الآن تقوم بمئات الأعمال بهمة ونشاط
ودون كلل . من العناية بالمريضات الى تلبية طلباتهن
العديدة المتنوعة ، الى اعداد الطعام ، وتسوية الأسرة
والفراش ، الى وضع الفحم في المدفأة الى آخر تلك
الأعمال الشاقة . ولكنها مع ذلك كانت راضية وسعيدة
بها .

وقد وصف بعض الأصدقاء حالتها في تلك الفترة
بأنها كانت شابة طويلة مليحة ، تشع بهجة وأملا ،

نرتسم على وجهها ابتسامة عذبة حلوة ، وتغمل مشاعر
الود للجميع .

أما السيدات المريضات في هذا الملجأ ، فقد
أحببنا حبا جما . وقد عبرن عن هذا الحب في بعض
الخطابات التي أرسلنها اليها . . . فهناك خطاب يقول :
« يا أعز انسان وأطيب انسان . . الأنسة نايتنجيل . .
انى أرسل اليك بعض سطور من الحب . . . »
وهناك خطاب آخر يقول : « شكرا لك . . لقد كنت
شمسنا المشرقة التي تحنو علينا . . »

وبالإضافة الى هذا الجمال والصفات الودية التي
تميزت بها فلورنس نايتنجيل ، كانت تتميز أيضا
بعزيمة صلبة . ولها قدرة فائقة على جعل الناس
يتعاونون مع بعضهم وينظمون أعمالهم على خير وجه .

وكل ما قامت به فلورنس نايتنجيل حتى هذه
اللحظة ، كان مجرد استعداد لعمل كبير ينتظرها . .
وكانت هناك أحداث كبرى على وشك الوقوع . .
أحداث كان لها فيها دور هام لا ينسى . .

٦ - بداية حرب القرم

لقد نشبت الحرب بين إنجلترا وروسيا • وأرسل الجيش البريطاني الى القرم على البحر الأسود لمحاربة الجيش الروسى • وكان مقر قيادة الجيش البريطانى فى قرية « سكوتارى » وهى قرية كبيرة تقع بالقرب من استانبول •

وكان الجنود الانجليز يحاربون بشجاعة برغم ما ينقصهم من الكثير من المستلزمات • كانت تنقصهم الخيام ، ويشكون من قلة الطعام ، ومن عدم وجود الأطباء أو الرعاية الطبية اللازمة لجرحى المعارك • وكان

آلاف من هؤلاء الجرحى يسقطون دون أن يهتم بهم أحد ، وكان أغلبهم يموتون بسبب الإهمال في معالجة جروحهم . فقد كان هؤلاء الجرحى يرقدون على الأرض في صفوف طويلة دون أى طعام أو ماء أو علاج .

وسقط الجرحى في المعارك الحربية يعتبر شيئا معتادا في الجيوش . ولكن الشعب الانجليزى لم يكن يعلم شيئا عن الحالة البائسة التى يعانى منها جرحى الجيش البريطانى في حرب القرم . الى أن قام كاتب مشهور من احدى الجرائد الهامة التى تصدر في لندن ، بزيارة لميدان الحرب ، ورأى الأحوال السيئة في المعسكرات والمستشفيات الميدانية ، فوصف الكاتب كل ما رآه من أهوال ، ونشرت جريدته قصصا مخيفة تقشع منها الأبدان .

كان الجرحى يجبرون على الانتظار لمدة اسبوع على الأقل قبل أن يفحص الطبيب جروحهم . وكانت هناك لا يمكن معالجتها بسبب عدم وجود الأربطة ، أو بسبب عدم وجود من يقوم بربط هذه الجروح . وبمجرد نشر هذه المقالات في الجريدة اللندنية ،

غضب الشعب الانجليزى غضبا شديدا . . وثار عدة تساؤلات : لماذا هذا النقص الشديد فى الأطباء وفى المعدات الطبية . . ومن المسئول عن هذا الخطأ الكبير . وأخذ الشعب يلوم المسئولين فى الحكومة . وكان من ضمن المومنين شخص يدعى « سيدنى هربرت » وكان يشغل وظيفة حكومية هامة ، وكان فى نفس الوقت صديقا ، لفلورنس نايتنجيل .

كان هذا الصديق يعلم أن فلورنس تعرف الكثير عن شئون المستشفيات وطرق رعاية المرضى . فأرسل إليها خطابا مفصلا يعرض فيه أفكاره ، وقال فيه :

« ان المستشفى الميدانى فى « سكوتارى » فى حاجة شديدة الى مرضيات . . لأن الجرحى هناك يعانون كثيرا من عدم الرعاية . . وانى أعرف أن هناك عددا لا بأس به من السيدات والآنسات يرغبن فى التطوع كمرضيات ، ولكنهن لا يعلمن أى شئ عن التمريض وليس لديهن أية فكرة عن المستشفيات ، أو عن الواجبات المطلوبة منهن . . وانى أعرف أن هناك

شخصاً واحداً في انجلترا كلها يستطيع أن يقوم بحل
المشكلة .. هو أنت .. أنت وحدك تستطيعين أن
تختاري هؤلاء المرضات وتوجهيهن الوجهة السليمة
لأداء عملهن على خير وجه .. وأنا أعرف أنها مهمة
صعبة ، فما رأيك .. هل تقبلين القيام بهذا
السوالب .. واني على يقين بأنك ستقررين الأمر
بحكمة .. وادعو الله أن يكون جوابك بالموافقة ! ، .

٧ - تلبية النداء

كانت هذه الرسالة بمثابة الفرصة السانحة التي
هيأتها السماء لفلورنس نايتنجيل لكي تحقق أهدافها
ولكي تثبت مدى الأهمية الكبرى لوجود الممرضات . .
وكانت عيون الشعب الانجليزي منجبهة كلها الى
حيث يوجد الجيش البريطاني في « سكوتارى » .
ومعنى ذلك أنه اذا فشلت النساء في العمل كممرضات
لرعاية المرضى والجرحى في مثل هذه الظروف الصعبة
فلن تقوم لفكرة فلورنس في تطوير عمل الممرضات في
المستشفيات أية قائمة .

وهكذا كان لزاما عليها أن تقبل هذه الدعوة ،
وأن تفعل كل ما فى وسعها لضمان نجاحها • ولكن
المشكلة الحقيقية تكمن فى كيفية اختيار المرضعات
المطلوبات • • فآين تجدهن يا ترى • • ؟!

ولم يكن هذا بالعمل الهين ، خصوصا وأن الوقت
كان ضيقا • وعلى أية حال ، فقد جمعت فلورنس ثمان
وثلاثين سيدة بعد أن استبعدت الشابات الصغيرات •
وكان بعضهن على دراية بسيطة بأصول العمل •
وجميعهن قد تقدمن لهذا العمل ليحصلن على أجر أعلى
من أجورهن فى إنجلترا •

وبسرعة فائقة ، أعدت لهن ثيابا خاصة موحدة
الشكل ورمادية اللون وخالية من الجمال أو الشياكة •
وكانت هذه أول فرقة من ممرضات الأنسة نايتنجيل •

٨ - فى تركيا

وكانت أيام الاعداد لتكوين هذه الفرقة من المرضات حافلة بالعمل . وعندما علمت أمها مسز نايتنجيل واختها يارثى بأن الحكومة قد اختارت فلورنس لهذه المهمة الصعبة ، أسرعت الأم والأخت الى لندن لمساعدتها فى اعداد الفرقة .

وهكذا رحلت فرقة المرضات الى فرنسا عبر بحر المانش ، ثم أخذت القطار الى جنسوب فرنسا . ومن هناك ركبن سفينة متجهة الى استانبول . وكانت رحلة بحرية عاصفة ، فقضت فلورنس معظم الوقت

راقدة فى الفراش تعاني من دوار البحر .

واخيرا وصلن الى استانبول فى الثالث من نوفمبر
سنة ١٨٥٤ ، ونزلن الى الشاطئ . وهبت عليهن
رياح باردة ، وتجمعت حولهن كلاب جائعة ، وشاهدن
جثة حصان طافية فوق سطح الماء ، ومجموعة من الجرحى
واقفين فى يأس . وتسلفت الفرقة منحدرًا صغيرًا .
وشاهدن المستشفى الميداني لأول مرة .

٩ - المستشفى فى أسوأ حالة

كان المبنى من الخارج يبدو ضخما وذا منظر خادع . فقد كان فى الأصل معسكرا للجنود الأتراك وحولوه الى مستشفى نظرا لظروف الحرب .

أما داخل المبنى فقد كان الأمر سيئا الى أقصى حد . . . فهناك فناء واسع جدا تحف به من جميع الجوانب حجرات وقاعات لا حصر لها ، كلها ذات أرضيات محطمة وحوائط تنضح منها الرطوبة .

وكان أحد أجزاء هذا المبنى الضخم قد تعرض لحريق كبير ، فهدم لمدة طويلة وأوقف استعماله .



المستشفى في سكوتلاند

والجزء الثانى كان عبارة عن معسكر للجنود . والجزء الثالث كان اصسطيلا للخيول ومحلا لشرب القهوة والنبينه . والأسوأ من ذلك كله عدم وجود مياه صالحة للشرب ، كما أن أنابيب مجارى الصرف الصحى كانت معطلة تماما وغير صالحة .

وكان عدد الجنود الجرحى الذين يموتون بسبب الأمراض التى أصيبوا بها فى هذا المستشفى ، أكثر من عدد الجنود الذين كانوا يموتون بسبب ما أصيبوا به من جروح فى المعارك الحربية .

وكان الجنود الجرحى متناثرين فى كل أنحاء المبنى ، ولا يشرف عليهم أحد على الاطلاق . وقد أقبل فصل الشتاء والمستشفى خال تماما من أى مؤن أو معدات أو مستلزمات . ولا توجد به حتى الشوك والسكاكين والملاعق الخاصة بتناول الطعام .

وكانت قواعد الخدمة بالجيش تقضى بأن الجندى المحال الى المستشفى ، لا بد أن يصحب معه أمتعته وملابسه وأدواته وعهدته التى استلمها من الجيش . .

ولكن كيف يمكن أن يضطرب جندي جريح كل هذه الأشياء ١٩ ٠٠ وكيف كان يمكن المحافظة على كل هذه الأشياء أثناء استعمار المعارك الحربية بكل ما فيها من اضطراب ١٩ ٠٠

ولكن هذه كانت الأوامر ٠٠ وهي أوامر غبية متعسفة وظالمة ٠ فالجنود الجرحى وغير الجرحى كانوا يفقدون عهدهم في أغلب الأحوال ٠٠ وحين كانوا يتوجهون إلى مخازن الجيش ليطلبوا أدوات جديدة بدلا من الأدوات التي فقدوها ، كانوا يتلقون اجابة واحدة جاهزة : نأسف أيها الزميل العزيز ٠٠ كان يجب أن نحافظ على عهدتك !

١٠ - استقبال بلون ترحيب

خصصت للآنسة نايتنجيل ومرضااتها الشمانية والثلاثين ثلاث حجرات ضيقة ، كان يشغلها من قبل ثلاثة من الأطباء . كانت حجرات قذرة ليس فيها سوى الفئران والحشرات وثلاثة من المقاعد وجثة ضابط روسي قتيل .

لم يرحب الأطباء اطلاقاً بوصول هؤلاء المرضعات ، وكانوا يقولون دائما : من أحضر هؤلاء المرضعات ؟ وماذا يمكن أن تفعل مجموعة من النساء وسط الجنود الجرحى ؟

وتجاهل الأطباء وصول الممرضات ، وقرروا عدم التعامل معهن . وصممت فلورنس نايتنجيل من جانبها على عدم بدء العمل الا بعد قبول الأطباء لوجودهن من ناحية المبدأ . كانت مقتنعة تماما بأن الممرضات لا بد أن يعملن تحت اشراف الأطباء . . ذلك لأن الواجب الأول على كل ممرضة أن تقوم بتنفيذ أوامر الطبيب . وهكذا ظلت فلورنس وممرضاتها منتظرات أى استدعاء لهن من جانب الأطباء . . ولكن دون جدوى . . ومر اسبوع لم يفعلن فيه شيئا سوى اعداد الأربطة وتجهيزها لتضميد الجروح . . بينما كان الجنود الجرحى لا يتلقون أى علاج .

وكانت حالة المطابخ فى المستشفى فى منتهى السوء . كان الطباخون يلقون بقطع كبيرة من اللحم فى قدور ضخمة يوقدون تحتها النار . وعندما يظنون أن اللحم قد نضج - سواء أكان قد نضج بالفعل أو لم ينضج بعد - كانوا يأمرؤن مساعديهم بإطفاء النار بجرادل مملوءة بالماء . ثم يقومون بتوزيع هذا اللحم على الجنود الجرحى والمرضى كيفما اتفق ، فبعضهم كان

يُحصل على قطعة ناضجة ، وآخرون يحصلون على قطع
ما زالت نيئة ، وكثيرون كانوا يحصلون على قطع من
العظم الخالص . أما أغلبية الجنود فكانوا لا يحصلون
على شيء !

وبطبيعة الحال كان من النادر وجود الحضراوات .
أما الشاي ، فقد كان أمره مروعا . كانوا يغفلونه في
نفس القدور والأوعية الضخمة التي يسلقون فيها
اللحم دون أن يغسلونها تماما علق بها من دهون وبقايا
الشوربة ، ولذلك فقد كان مذاقه يشير الغثيان ، ولا
يمكن أن يشربه أحد أو يستسيغه أحد .

وأخيرا سمحوا لفلسورنس نايتنجيل وفرقة
المرضعات أن يدخلن إلى المطابخ ليشرفن على إعداد
الطعام والتأكد من طهيهِ به طريقة مناسبة . وكان هذا
أول عمل قمن به في هذه المستشفى !

١١ - بداية العمل

وفجأة حدث تغيير كبير . فقد ساءت الأمور في
القرم حيث تدور المعارك . وسقط المطر مدرارا فحول
الأرض الى بحيرات من طين . ونقصت مقادير الطعام
التي كانت تصل الى الجنود المحاربين في الميدان ، كما
أصبحوا جميعا بلا مأوى يقيهم من برد الشتاء القارس
وبدأت أفواج من الجنود المرضى يصلون الى المستشفى
قادمين من القرم عبر البحر الأسود

وازدادت الأمور سوءا حين هبت رياح كالاعصار
الدمر ، فتهدمت البيوت والمباني ، وسقطت الأشجار

الضخمة واقتلعت من جذورها ، وطارت الخيام في الهواء ، وغرقت سفن كثيرة ، وفسدت كميات هائلة من الامدادات والتموين . واصبح الجنود المساكن نصف مدفونين في الطين والماء البارد ، بلا طعام وبلا غطاء .

ويوما وراء يوم ، تدفقت الى المستشفى جماعات غفيرة من المرضى والجرحى يعدون بالآلاف . فامسلات بهم كل حجرات المستشفى وكل قاعاتها . وتمددوا في صفوف طويلة مترامية على الأرض . واصبحت المستشفى في حالة يرثى لها .

أما الأطباء ، خصوصا الكبار منهم ، فكانوا يعملون كالأسود ، بل وكانوا يظلون واقفين على أرجلهم لاربعة وعشرين ساعة متوالية ، محاولين فحص أكبر عدد ممكن من الجرحى والمرضى ، ولكن بلا جدوى . فهناك نقص شديد في الأغذية ومقارن الأسرة ، ونقص شديد في الأدوية والأدوات الطبية ، ونقص شديد في تجهيزات المستشفى ومستلزماتها .

وكان آلاف من المرضى والجرحى يرقدون على الأرض في انتظار الموت أو أي مصير تعس آخر .

وعندما يشس أطباء المستشفى تماما وأصبحوا
عاجزين عن ملاحقة هذه الحالة المتدهورة ، قرروا أخيرا
الاستعانة بالآنسة نايتنجيل وفرقة ممرضاتها .

وما أن شرعت فرقة الممرضات فى العمل ، حتى
حلت روح جديدة وبدأت الأمور تتحسن رويدا رويدا .
وفهم الأطباء أخيرا أن هناك شخصا واحدا فى
« سكوتارى » كلها يستطيع أن ينقذ الموقف بما معه
من نقود وأموال ، وبما فى شخصيته من قوة وقدرة على
وضع الأمور فى نصابها السليم . . هذا الشخص هو
الآنسة فلورنس نايتنجيل !

لقد وصلها مبلغ كبير من المال من لندن ،
فاستخدمته على خير وجه . كانت الأرض فى منتهى
القدارة فاشتريت مائتى فرشاة لمسح الأرض والبلاط . .
وكانت ملابس الجنود لم تغسل منذ أسابيع طويلة
فاستأجرت بيتا واستأجرت مجموعة كبيرة من النساء
الأتراك ليغسلن ملابس الجنود . . كما اشترت من
أسواق استانبول جميع المستلزمات الأخرى مثل الملاعق
والشوك والسكاكين والمقصات وأمشاط الشعر

والصابون والمناديل والقمصان والأطباق وأواني
الطعام .

وفي بداية شهر ديسمبر ، وصلت أخبار بأن نحو
ستمائة جندي جريح ومريض في طريقهم الآن الى
المستشفى ، قادمين عبر البحر الأسود . ولكن المستشفى
كان مملوءا عن آخره ، ولا يمكن أن يتسع لأى واحد
جديد . فما العمل ؟!

لم يكن هناك الا القسم المهجور الذى كان قد
تعرض فيما قبل الى الحريق . . فلو تم اصلاح هذا
القسم وترميمه لأصبح فى الامكان توفير مكان لايواء
نحو ألف مريض وجريح . ولكن هذا الترميم يحتاج الى
مال وعمال ، ويحتاج الى أمر من شخص مسئول ليبدأ
العمل . . ولم يكن هناك الا فلورنس نايتنجيل ، فهى
وحدها القادرة على هذا الانجاز .

١٢ - الاشرافى على تطبيق النظام

أخذت كل شىء على عاتقها ، فاستأجرت نحو مائتين من العمال قاموا بإنجاز العمل فى أقل وقت .
وعندما وصل المرضى والجرحى ، فلم يكونوا ستمائة فقط وإنما كانوا ثمانمائة أو أكثر . ولكن كل واحد منهم كان له سرير خاص يرقد عليه .

وقد وصف أحد المرضى مشاعره بعدما غادر المركب القذر الذى نقله من الميدان الى « سكوتارى » واستقبلته الأنسة نايتنجيل وفرقة الممرضات وقدنه الى سرير نظيف وقدمن اليه طعاما ساخنا : « لقد احسنا بأننا انتقلنا الى النعيم ! » .

ولم تكن العلاقات بين فلورنس نايتنجيـسل وممرضاتها علاقات طيبة فى كل الأحوال . فهى تؤمن بضرورة الطاعة والالتزام بالنظام ، لأنها تريد أن تثبت للعالم أهمية عمل المرأة كممرضة . وهى تعلم أن وجود بضع نساء بين آلاف من الرجال هو أمر يحتمل معه حدوث بعض المشاكل ، ولهذا فقد كان لا بد من تطبيق نظام صارم ، ولا بد أيضا من طاعة كل أوامرهما وكل نواهيها .

وكانت بعض الممرضات يشكين من قبح شكل غطاء الرأس الذى أجبرن على لبسه . وبعضهن كن يشكين من منعهن من الدخول الى غرف المرضى بعد الساعة الثامنة مساء . وآخريات كن يشكين من منعهن اعطاء المرضى ما يناسبهم من الطعام الا بعد الرجوع الى أمر الطبيب وموافقته . كما أن كثيرات منهن كن يكرهن الآنسة نايتنجيل لأنها كانت صارمة جدا ومن الصعب ارضائها .

وكان من اللازم مرور بعض الوقت حتى تعتاد الممرضات على تنفيذ كل هذه الأوامر والالتزام بالنظام

الصارم الذى وضعته فلورنس نايتنجيل ،
وفى خلال تلك الفترة عاشت حياة صعبة حافلة
بالعمل . ولم تكن صحتها على ما يرام فى جميع الأحوال ،
بسبب كل تلك الظروف السيئة فى « سكوتارى » .
وعندما تمطر السماء ، كانت قطرات المطر تتساقط فى
حجرتها من خلال شقوق السقف . كما أن الطعام كان
لا يناسبها .

وكان من النادر أن تفساد مبنى المستشفى حيث
كانت تقضى فيه طول الوقت ليل نهار . وعندما كانت
تصل أفواج جديدة من المرضى والجرحى ، كانت تظل
واقفة على قدميها لأربع وعشرين ساعة متوالية . وكانت
تستقبلهم بكثير من الود واللفظ والعطف .

وكانت محل إعجاب وتقدير من جميع الجنود .
لقد استطاعت أن تجعلهم يكفون عن السب ونطق
الألفاظ القبيحة فى أحاديثهم . وجعلت بعضهم يكف عن
شرب الخمر ، كما عاونتهم وشجعتهم على الكتابة إلى أهليهم
فى الوطن . بل وكانت تشجعهم على تحمل الألم حين
كان الأطباء يجرون لهم العمليات الجراحية .

وكانت عيون المرضى والجرحى تتبعها وهي تمر
ليلا بين الحجرات لتطمئن على من فيها ، وهي تحمل في
يدها المصباح الذي اشتهرت به . وكتب أحد الجنود :
« كنا نجد راحة شديدة عندما كانت تمر على حجراتنا . »
قد تحدث مع أجدنا ولكنها كانت تبترسم لنا جميعا »

١٣ - زيارة للقرم

وبعد حلول فصل الربيع ، وبعد أن تحسنت الأوضاع في المستشفى . ذهبت فلورنس نايتنجيل الى منطقة قريبة من ميدان الحرب في القرم ، وهي منطقة « بلاكافا » وذلك لزيارة المستشفى الميداني هناك .

وبعد فترة قصيرة من وصولها الى « بلاكافا » سقطت مريضة بحمى خطيرة . فظلت راقدة لمدة اسبوعين بين الحياة والموت . وحزن الجنود المرضى والجرحى الراقدون بمستشفى « بلاكافا » حزنا شديدا . أما الجنود المرضى والجرحى الراقدون في مستشفى

« سكوتارى » فقد أداروا وجوههم نحو الحائط وأخذوا
يبيكون ويدعون لها بالشفاء . وعندما وصلت أنباء
مرضها الى انجلترا استقبلها الشعب بأسف شديد . .
ولكن بعد وصول أنباء قرب تماثلها للشفاء كان الناس
يهنئون بعضهم بتلك الانباء السعيدة .

وعندما استطاعت أن تستعيد قدرتها على الحركة
عادت مرة أخرى الى مقرها بمستشفى « سكوتارى » .

ويمكن تقسيم تلك الفترة من حياة فلورنس
نايتنجيل الى فترتين زمنيتين . الفترة الأولى تشمل
الشتاء الرهيب عام ١٨٥٤ - ١٨٥٥ عندما استطاعت
أن تجعل من مستشفى « سكوتارى » مكانا لائقا بالمرضى
والجرحى تسوده النظافة وحسن النظام . أما الفترة
الثانية فتبدأ فى ربيع ١٨٥٥ حتى موعد عودتها الى
انجلترا فى ١٨٥٦ . وكانت فترة حافلة بكثير من
المشاكل والصعوبات . .

١٤ - الأوقات العصيبة

ظهر لفلورنس نايتنجيل أعداء في كل من
المستشفى والجيش .. ذلك لأن الأنباء التي كانت قد
وصلت إلى إنجلترا عن سوء حالة الجنود وندهور حالة
المستشفيات الميدانية ، قد أثارت الكثير من مشاعر
الغضب العام ، كما أثارت عاصفة عاتية من الشكاوى .
الأمر الذي أدى إلى غضب كبار الأطباء وكبار الضباط في
« سكوتارى » فأخذوا يوجهون اللوم إلى فلورنس
نايتنجيل ، ويكتبون التقارير ضدها وضد طريقة عملها،
وأخذوا يعملون على ترحيلها .

وقاومت فلورنس كل هذه المحاولات بعزم وصلابة

رجال عظام .. ونساء عظيمات ٩٧

شديدة . بل وازدادت الى أهدافها أهدافا أخرى تتعلق
بتحسين أوضاع الجنود العاديين . فقد كان الضباط فى
بعض الأحيان يعاملون جنودهم كما لو كانوا حيوانات .

وقد لمست فلورنس بنفسها جميع الأحوال السيئة
التي كان يعاني منها الجنود ، والتي كانت تؤدي الى
جعلهم يسلكون سلوكا غير طيب ولا حميد . وقسم
أرسلت فلورنس الى أختها « بارثى » رسالة توضح
وجهة نظرها فى هذا الشأن ، قالت فيها : لا بد أن
نمنحهم فرصة . . لا بد أن نقيم لهم المدارس ليتعلموا
. . ولا بد أن نتيح لهم الاستماع الى الخطب والدروس
الطيبة . . وأن نوفر الكتب لمن يستطيع منهم أن يقرأ .
. . ولا بد أن تقدم لهم برامج التسلية والترفيه البرى .
. . وعندئذ سيتوقفون من تلقاء أنفسهم عن شرب الخمر
. . وسيصبحون أكثر طاعة وإخلاصا فى كل أعمالهم ،
وفى كل ما يطلب منهم تنفيذه من أوامر أيا كانت ! » .

١٥ - مساعدة الجنود

لقد آمنت فلورنس نايتنجيل بضرورة مساعدة جنود الجيش ، ليس فقط عندما يكونون مرضى أو جرحى ، بل وحين يكونون أصحاء أيضا . . . وكانت تؤمن بأن خدمة هؤلاء الجنود خارج المستشفى لا تقل أهمية عن خدمتهم داخل المستشفى . وبالرغم من معارضة بعض الضباط ، افتتحت فلورنس ركنا للقراءة والاطلاع وخصصته للجنود الذين يستطيعون الحركة أثناء علاجهم بالمستشفى . وعندما أرادت استخدام أحد المدرسين ليقوم بتعليم الأميين من

الجنود مبادئ القراءة والكتابة ، رفض الضباط ذلك بشدة ، وقالوا لها : « انك تفسدينهم يا آنسة ! » .

وقد لاحظت فلورنس أن الجنود ينفقون مرتباتهم القليلة على شرب الخمر ، لأنهم لا يستطيعون تحويل نقودهم الى عائلاتهم في انجلترا . لذلك فقد خصصت يوما معينة في كل اسبوع ، تتلقى فيه الأموال التي يريد الجنود تحويلها الى أسرهم ، ثم تقوم بعد ذلك بإجراءات تحويل هذه النقود الى انجلترا لتسليمها الى أسر وعائلات الجنود في جميع أنحاء انجلترا .

ثم افتتحت بعد ذلك قاعة كبيرة للقراءة والمطالعة زودتها بالأثاث وبالمناضد والمقاعد ، وزينتها بالحرائط والصور واللوحات . واشترت من أموالها الشخصية مجموعة كبيرة من الأدوات الكتابية كالورق والأقلام والأحبار ، ومجموعة كبيرة من الجرائد والمجلات .

وفي قاعة القراءة تلك كان الجنود يتجمعون أيضا لسماع الخطب والاحاديث المسلية . كما كون بعضهم فرقة للانشاد والغناء . وكون آخرون فريقا صغيرا

للمتمثيل • وفريقا لكرة القدم اشترك فيه بعض الجنود الذين يمرون بفترة النقاهة • كما جهزت وأعدت بعض الألعاب الهادئة التي لا تحتاج الى مجهود للجنود المرضى أو الجرحى الذين لا يستطيعون الحركة بسهولة •

وبفضل كل هذه الجهود التي بذلها فلورنس نايتنجيل ، تحسنت صورة الجندي أمام نفسه وأمام زملائه وأمام ضباطه وأمام المجتمع ككل ، واختفت تماما وبغير رجعة صورة الجندي السكير العريبد المستهتر •

وفي ابريل ١٨٥٦ انتهت الحرب بين انجلترا وروسيا ، وبالتالي فقه قسـل العمل فى مستشفى « سكوتارى » • وما أن حل شهر يوليو ، حتى رحل آخر جندي من المستشفى عائدا الى انجلترا • وهكذا انتهى تماما عمل فلورنس نايتنجيل فى حرب القرم ، واستعدت هى الأخرى للعودة الى بيتها •

١٦ - العودة الى البيت

كانت انجلترا كلها ترغب في تكريمها . فالنقارير
التي كتبت ضدها كانت لا تساوى شيئا امام العرفان
بالجميل من عشرات الآلاف من الجنود وعائلاتهم في
انجلترا . ولذلك فقد قام البعض باعداد خطة
لاستقبالها استقبالا لائقا ، يخرجون فيه لتحياتها في
احتفال تعزف فيه الموسيقى وتلقى فيه الخطب لتمجيدها
وتمجيد مشاعرها النبيلة . بل وأرادت الحكومة أن
تشيع لها العودة على ظهر إحدى السفن الحربية .
ولكن فلورنس نايتنجيل لم تكن راغبة في كل

ذلك . وركبت سفينة عادية دون أن تعلن عن شخصيتها الحقيقية ، وأطلقت على نفسها اسم « الأنسة سميث » . وأوصلتها هذه السفينة الى جنوب فرنسا . ومن هناك ركبت القطار الى شمال فرنسا . ثم عبرت المانش على سفينة عادية أوصلتها الى لندن .

وكان أبوها وأمها وأختها جالسين في قاعات البيت حين وصلت . وكانت خادمة البيت العجوز أول من رأتها . فقد كانت الخادمة عندئذ جالسة في حجرتها حين رأت سيدة ترتدى ملابس سوداء ، تتجه نحو بوابة البيت . وعندمسا تحققت الخادمة من شخصية هذه السيدة ، أطلقت صرخة فرح عالية ، وانهمرت من عينيها الدموع ، واندفعت نحوها لترحب بها

لقد عادت فلورنس نايتنجيل أخيرا الى بيتها .

١٧ - بعد الحرب

عندما عادت الى البيت ، كانت ، تعبـة مرهقة منهوكة
القوى ومريضة . ومع ذلك فقد تبادت تفكر في الأعمال
الكثيرة التي قررت القيام بـ . وأهمها وضع الخطط
لتحسين أحوال الجنود العائدين في الجيش بعد أن رأت
بعينها ما يعانونه من سوء المعاملة وقلة الخدمات المقدمة
لهم .

وكان عليها أن تقنع السلطات في إنجلترا بكل
أهدافها ، ولكن بعد أن تكسب احترام هذه السلطات
لكي تقف الى جانبها في تحقيق تلك الأهداف . لانها

كانت نظن - وهو ظن كان صحيحا الى حد بعيد - ان رجال السلطة لا يؤمنون بما تؤمن به من اهداف نبيلة لخدمة المجتمع ، ويشكون تماما فى قدرتها على القيام بأعمال مفيدة . وذلك على العكس تماما من احساس الجنود المرضى والجرحى الذين عرفوها جيدا ، والذين كادوا يعتبرونها مثل بطلات الأساطير وقصص البطولات الخارقة !

والغريب ان فلورنس . نايتنجيل قد انزوت فى بيتها بعد عودتها الى انجلترا . فلم تظهر أبدا أمام الجمهور ، ولم تكتب مقالات أو تلقى أية محاضرات عامة . ولم تنضم الى أى حزب من الأحزاب . كانت نريد أن ينساها الناس ، وكادت أن تنجح فى ذلك .

ففى خلال السنة التالية لم يسمع الناس عنها أى خبر . بل وظن الكثيرون أنها قد ماتت . وحتى الذين عرفوها عن قرب ، أصبحوا لا يذكرون الا ما كانت تقوم به من أعمال وخدمات فى مستشفى « سكوتارى » أثناء حرب القرم .

لقد قضت فلورنس نايتهنجيل نحو عامين في
« سكوتاري » وعندها عادت الى انجلترا كانت في
السادسة والثلاثين . . . ومازالت أمامها سنوات طويلة من
العمل في ميادين أخرى . . .

١٨ - أهداف حياتها

مرت عليها سنوات طويلة وهى مريضة تلازم فراشها ٠٠ وسنوات طويلة أخرى كانت تعمل فيها ليل نهار : تزور المستشفيات ، وتضع الخطط لمساعدة المرضى والفقراء من الناس . وتقابل المسئولين فى الحكومة لتقدم اليهم التقارير التى كتبتها والحلول التى تراها لاصلاح الأحوال .

وكان أهم هدفين من أهداف حياتها ، هما تحسين أحوال الجنود العاديين بالجيش ، وتحسين أجور وأوضاع المرضات ، وأن تجعل من التمريض مهنة جديرة

بالاحترام . وقد نجحت فى تحقيق هذين الهدفين الى حد كبير ، ليس فى انجلترا وحدها ، وانما فى بقية أنحاء العالم المتمدين .

وبفضلها أصبحت مهنة التمريض على ما هى عليه الآن . وانشئ معهد نايتنجيل لتدريب المرضات قرب أكبر مستشفيات انجلترا . وقد تخرجت من هذا المعهد آلاف عديدة من الشابات ، كان لهن أكبر الأثر فى تطوير مهنة التمريض ومستوى الخدمات الطبية فى مستشفيات انجلترا . واعتبرن نموذجا يحتذى فى مستشفيات بقية أنحاء العالم .

وقامت فلورنس نايتنجيل بتأليف كتاب صغير عن تدريب المرضات ، مازال بعضه صالحا حتى اليوم . وبطبيعة الحال فإن كثيرا من الوسائل الجديدة قد طرأت الآن على نظم التمريض الحديثة . ولكن على

يامها كان كتابها يعتبر طفرة كبيرة في التطور من حال
الى حال احسن وافضل . ولذلك فقد طبع منه في انجلترا
آلاف من النسخ وزعت على المصانع والورش والمناجم
والقري والمدارس . كما ترجم الى عديد من اللغات
الأوربية .

١٩ - فى أواخر أيامها

ظلت فلورنس نايتنجيل تعمل لسنوات طويلة •
وكرمها الملوك والملكات وكبار رجال الحكومة • وكان
الأطباء والجهات الحكومية يلجأون اليها ليحصلوا منها
على المعلومات والارشادات الخاصة بتشغيل المستشفيات
وما تحتاجه من مرضيات •

أما المرضيات أنفسهن ، والفقراء من الناس الذين
وهبت حياتها لخدمتهم فقد كانوا أسبق الجميع فى
الاعتراف بأفضالها وجمالها •

وبمرور السنين •• قلت قدرتها على العمل ••

وماتت فی هدوء فی بیتها • وكان عمسرها ساعتئذ
تسعين سنة !

وعلى قبرها نصب حجرى صغير ، كتب عليه :

« ف • ن »

(ولدت ١٨٤٠ • ماتت ١٩١٠)

ابراہام لینکولن

فى أحد الأيام المبكرة الأولى من الحياة فى
أمريكا .. كان هناك رجل يعمل فى حقل مجاور
للكوخ الذى شيده من جذوع الأشجار .. وكان لهذا
الرجل ثلاثة من الأبناء .

وفجأة .. ظهر الخطر !

نعم كان هناك الكثير من الأخطار فى تلك
الأيام .. فالمنطقة كانت محاطة بغابات كثيفة .. وفى
تلك الغابات كان يعيش الهنود الحمر .. بعضهم
أصدقاء ، وأكثرهم أعداء ..



١ - الهنود الحمر

انطلقت رصاصة ٠٠ وسقط الأب ميتا

وصاح أحد الأبناء :

- الهنود ٠٠ الهنود الحمر !

واندفع يجرى بأقصى سرعة لاستدعاء المساعدة
من اقرب حامبة ٠٠ أما الابن الثاني ، فقد اندفع بدوره
الى داخل الكوخ لاحضار البندقية . ولكنه ما أن استدار
ليواجه المهاجمين ، حتى رأى أحد الهنود الحمر ينقض
على أخيه الصغير الذى لا يتجاوز عمره ست سنوات

وحمله بين ذراعيه وشرع فى الهروب به الى داخل
الغابة .

وبسرعة صوب الابن الثانى بندقيته تجاه الهندى
وأطلق النار . . فسقط الهندى على الأرض وانفلت
الغلام الصغير هارباً تجاه الكوخ . وانضم الى أخيه
فى مقاومة الهجوم حتى وصلت المساعدة من الحامية
القريبة .

أما الصبى الصغير . . فقد كان اسمه «توماش» .
وهو الذى أصبح فيما بعد أباً لابراهيم لينكولن . .

٢ - الحياة الأمريكية فى الماضى

وبمبدأ قصتنا صنفه فى ولاية « كنتكى » بعد سنوات قليلة من بداية اتحاد الولايات الأمريكية مع بعضها لتكوين دولة جديدة هى الولايات المتحدة الأمريكية .

وكان المهاجرون الوافدون من أوروبا يستقرون فى البداية فى الجانب الشرقى لأمريكا المطل على المحيط الأطلنطى . أما الشجعان منهم فقد كانوا يتجهون صوب الغرب . حيث الحيوانات المفترسة والهنود الحمر والجبال والوديان الخصيبة والغابات الكثيفة والسهول الواسعة .

وكانت بعض جماعات الهنود الحمر ترحب بهؤلاء
الوافدين الأوربيين ، ويقدمون لهم العون والمساعدة ،
بينما كانت هناك جماعات أخرى من الهنود الحمر
تهاجم هؤلاء الوافدين لمنعهم من الإقامة في تلك الأراضي .

ولكن أغلب هؤلاء الوافدين الشجعان تمسكوا
بالأرض . . . وكانوا يشيّدون بيوتهم وأكواخهم من
جذوع الأشجار ، ويبداون في زراعة الأرض بمختلف
أنواع المحاصيل .

وبمرور الوقت تدفق وافدون جدد ، وتعاون
الجميع في إنشاء الطرق ثم إنشاء القرى والمدن
الصغيرة . . . وكلما وفد مهاجرون جدد كلما اتسع
نطاق التقدم نحو الغرب بحثا عن الأراضي الجديدة
الصالحة للزراعة . . . وهكذا رويدا رويدا عمرت البلاد
حتى شواطئ المحيط الهادى في أقصى غرب أمريكا .

ولم يذهب توماس لينكولن الى مدرسة . . . والى
أن تزوج ، كان لا يعرف القراءة ولا الكتابة . . . ولكن
زوجته التى كانت على معرفة قليلة بمبادئ القراءة

والكتابة استطاعت أن تعلمه كيف يكتب اسمه .
وكان الزوجان يعيشان في كوخ بسيط مشيد
بجذوع الأشجار ، في قرية صغيرة بولاية كنتنكي .
وفي هذا الكوخ ولد لهما طفلان ، الأول كان بنتا
سميها « ساره » أما الثاني فكان ولدا سمياد
« أبراهام » .

٣ - البيت والمدرسة

وكان الطفل أبراهام لا يجد شيئاً يعملهُ سوى اللعب مع أخته سارة ، جوار الكوخ أو في الحقل أو عند أطراف الغابة .^{١٠} وكان هذا الكوخ يتكون من غرفة واحدة تعيش فيها الأسرة كلها . ولم يكن هناك سوى باب واحد ونافذة واحدة .

وعندما وصل أبراهام الى سن السابعة .٠٠ كان عليه أن يسير على قدميه نحو أربعة أميال (٦٤٣٧ متراً) كل يوم ليذهب الى اقرب مدرسة للبيت . كانت مدرسة مشيدة هي الأخرى بجذوع

الأشجار .. وتتكون من غرفة واحدة لها باب واحد وبدون نوافذ وأرضيتها مغطاة بالقذارة .. وكانت تضج بأصوات الأولاد والبنات الذين يحفظون دروسهم قبل أن يسمعوها للمدرس .. وكانت أصوات كل هؤلاء الأطفال تختلط مع بعضها : أ.ب.ت.ث. .. اثنان واثنان أربعة .. مدرسة .. م.د.ر.س.ة .. مدرسة .. القط الكبير أكل الفأر الصغير ..

وكان توماس لينكولن غير قانع بالحياة في ولاية كنتكي . فقد كانت الأرض التي يزرعها ذات مساحة محدودة وتربتها فقيرة .. وكان يأمل في أن يجد أرضاً أوسع مساحة وأكثر خصوبة إذا رحل بأسرته نحو الغرب حيث توجد مساحات هائلة تصلح للزراعة .

وعاون أبراهام أباه في إعداد قارب مسطح صنعاء من جنوع الأشجار . ووضعاً عليه كل ما كانت تملكه الأسرة من الأثاث الذي لا يتعدى بعض المقاعد ومنضدة وبعض المعدات البسيطة الأخرى . وقام الأب بقطر هذا القارب المسطح عبر النهر ، أما الأم والطفلة

فقد امتطوا ظهر حصانين اقترضتهما الاسرة من بعض
الجيران .

وعندما وصلت الاسرة الى أرض جديدة تصلح
للزراعة ، حطت رحالها ، وتعاونوا جميعا في تجهيز
المقر الجديد . . كانوا لا يملكون حصانا ولا بقرة . .
وكان عليهم أن يسرعوا فورا في تشييد مأوى يحميهم
من عواصف الشتاء التي أوشكت أن تهب . .

وهكذا بدأوا في تقطيع الاشجار واستخدام
جذوعها وفروعها في اقامة جوانب الكوخ وسقفه بعد
تغطيتها بالطين . . الى أن شيدوا في النهاية كوفا
بدائيا مفتوحا من أحد جوانبه .

واستقرت الاسرة في هذا الكوخ . . حتى تسنح
الفرصة لبناء كوفا أكبر حجما واحسن تشييدا .

٤ - البيت الجديد

• وبالرغم أن إبراهيم لم يكن يتعدى سبع سنوات
عمره . إلا أنه كان يبدو أكبر من سنه ، وأقوى من
أمثاله من الأولاد . . . كان يساعد أباه في أصعب
الأعمال ، وفي تقطيع الأشجار وتجهيز جذوعها لبناء
الكوخ الجديد .

وكان يساعد أيضا في اعداد لارض الجديدة
للزراعة . وفي ظرف سنة استطاع هو وأبوه أن يشيدا
كوخا جيدا لايواء الأسرة . وكان يتكون من حجرة واحدة
ذات سقف وحدرتان أربعسة له باب منخفض وبدون
نوافذ .

وكانوا يشعلون فرعا من فروع الشجر لتوفير
الاضاءة والدفء . وفى أحد جدران الكوخ كان هناك
بضع درجات مصنوعة من الأخرى من جذوع الاشجار
على شكل سلم يؤدى الى مكان تحت السقف . وفى
هذا المكان الصغير كان إبراهيم ينام على كومة صغيرة
من أوراق الشجر .

أما طعام الأسرة فقد كان أغلبه من لحم الحيوانات
البرية التى يتمكن الأب من اصطيادها . وكانوا
يصنعون ملابسهم من جلود هذه الحيوانات . ونادرا
ما كانوا يلبسون أحذية مصنوعة أيضا من جلود هذه
الحيوانات .

وقد استطاع إبراهيم ان يمسك بالبندقية فى
مرة ، وصوبها نحو طائر كبير فأرداه قتيلا . وعندما
ذهب ليحضر الطائر ، صعب عليه ان يكون هو السبب
فى مقتل هذا الطائر . ومنذ هذا اليوم امتنع إبراهيم
عن قتل أى حيوان حتى ولو كان من الحيوانات
المتوحشة .

٥ - المرض والموت

رلسوء الحظ ، تسلل المرض الى هذه الأسرة عند حلول فصل الخريف . وسقطت لأم مريضة منهوكة القوى . .

وهناك مثل ساد بين هؤلاء المستوطنين الأوائل في أمريكا الذين زحفوا الى الغرب واستوطنوا في الأراضي الجديدة . . كان المثل يقول : « الجبناء لا يبدأون أبدا والضعفاء يموتون في الطريق » .

وكان أقرب طبيب الى المكان الذي تعيش فيه الأسرة ، يبعد نحو ثلاثين ميلا (نحو ٤٨٣ كيلو

مترا) . ولكن وطأة المرض كانت شديدة . . وماتت
الأم في وقت قصير . وكان صوتها ضربة شديدة
قاسية للأب وإبراهيم واخته سارة . . خصوصا وأن
عمر سارة آنئذ كان نحو إحدى عشرة سنة . . وبالتالي
فقد كانت لا تستطيع أن تقوم وحسدها بكل حاجات
البيت .

وفي العام التالي تغيب مستر لينكولن عن البيت
عدة أيام ، عاد بعدها ومعه أم جديدة . كان الأب
يعرفها منذ مدة طويلة . وكان زوجها قد مات وترك
لها ثلاثة أطفال ، ولدين وبناتا . .

كانت امرأة طيبة . . سرعان ما أصبحت أما
لكل من سارة وأخيها إبراهيم . . وكانت لا تفرق
في المعاملة بينهما وبين أولادها . . كانت تحب الجميع
وترعاهم بكل طاقاتها . .

٦ - المدرسة والكتب

كبر إبراهيم وأصبح فتى يافعا ، قوى الجسم طويل القامة • وكان يعمل طول الوقت فى مختلف الاشغال لأن الاسرة كانت فقيرة وفى حاجة دائمة لمعاونته • فما أن ينتهى من العمل مع أبيه ، حتى يسرع الى العمل مع بعض الجيران نظير بعض النقود التى كان يعاون بها الأسرة •

وبالرغم من هذا العمل الشاق المتواصل ، الا أنه كان منصرفا بعقله وقلبه عن كل هذه الأعمال •• كان يتطلع دائما الى العلم والمعرفة •

وقد التحق إبراهيم بالمدارس في ثلاث مراحل مختلفة من حياته . المرة الأولى حين كان في السابعة من عمره . . . والمرة الثانية حين كان في الرابعة عشرة . . . والمرة الثالثة حين بلغ السابعة عشرة . وكان يقضى في المدرسة في كل مرة فترة قصيرة لا تتعدى أشهرا قليلة . . . وكان مجموع ما قضاه في فصول تلك المدارس لا يزيد عن اثني عشر شهرا .

ولكنه كان شغوفا بمعرفة المعلومات عن كل الاشياء . . . فكان دائم السؤال . . . يفكر كثيرا ويقرا عديدا من الكتب . . . وعندما كان يتوصل الى معلومة جديدة ، كان يكتبها عدة مرات حتى يحفظها عن ظهر قلب . . . وكان يقضى الأمسيات جالسا جوار النار لبستسيء بنورها انضئيل في مواصلة القراءة والكتابة . وبطبيعة الحال فلم يكن لديه أوراق تصلح للكتابة لذلك . . . كان يكتب على قطعة من الخشب حيا سطحها للكتابة . . . وكان يكتب بطرف عود محترق . . . وعندما كان يمثل سطح قطعة الخشب بالكتابة ، كان يقشرها

بسكينة ليزيل الكتابة القديمة وليجعلها صالحة لكتابة
جديدة .

واقترض أبراهام من أحد الجيران كتابا بعنوان
« حياة جورج واشنطن » الذى كان أول رئيس للولايات
المتحدة الأمريكية . . . وقد أعجب بالكتاب الى حد كبير ،
لدرجة انه كان يسطحه معه الى السرير ، ويزج به
بين أحد شقوق الكوخ المشيد من جذوع الأشجار ،
ليواصل قراءته عند ظهور أول ضوء للنهار . ولكن
السماء أمطرت بغزارة فى الليلة التالية ، ، وتخللت
مياه المطر بين صفحات الكتاب فافسدها ولم يعد
الكتاب صالحا للقراءة .

واضطر أبراهام لأن يعمل فى حقل الذرة الخاص
بصاحب الكتاب لمدة ثلاثة أيام حتى يعوضه عن ثمنه
. . . ومع ذلك فلم يتوقف عن اقتراض الكتب من
الجيران . . . ولم يمض وقت طويل حتى استطاع أن
يقرأ جميع الكتب الموجودة لدى جميع الجيران ولو
كانوا على بعد خمسين ميلا من كوخته . . . وكان يقرأ

بمنهم شديد .. وكان لا يشبع من التهام كنوز المعرفة
المخبأة بين أغلفة الكتب .. وكان يقول دائما : « إن كل
ما أريد معرفته موجود في الكتب .. وخير صديق لي
هو من يقرضني كتابا أقرأه ! » .

وبالإضافة الى ذلك فقد كان طيب القلب ،
محبوبا من كل الناس . وكانت زوجة أبيه تقول
دائما : « كان مطيعا وعلى خلق رفيع .. كان لا يعصى
لي أمرا .. كان أفضل غلام رأيته في حياتي ، بل
ولن أرى مثله أبدا بين الفتيان ! » .

كما كان يتمتع بقوة خارقة .. يستطيع أن
يجرى بأقصى سرعة دون أن يحس بالتعب .. ويستطيع
أن يكسب أية مباراة في المصارعة بمنتهى السهولة
.. بل وكان يستطيع أن يرفع حملا ثقله ستمائة رطل
(نحو ٢٧٢ كجم) دون أن يستعين بأحد .

وحين أصبح في سن الثامنة عشرة ، كان
يستطيع أن يمسك بيده أثقل الفئوس ، ويفرد ذراعه

بمستوى كتفه دون أن تهتز الفأس ولو هزة بسيطة .
وفي أحد الأيام اضطر لأن يسير على قدميه مسافة
قدرها أربعة وثلاثين ميلاً (٥٤٧٦٧ كم) ذهاباً وعودة
حتى يستمع الى خطبة كان يلقيها أحد الخطباء . . وقد
استمتع ابراهيم بكل من الخطبة والمشوار . .

٧ - مغادرة البيت

وفي سن الحادية والعشرين ، شعر أبوه بأن المكان الذي تعيش فيه الأسرة قد أصبح مزدحماً بالجيران وقرر الأب أن ترحل الأسرة مرة أخرى إلى أرض جديدة .

ورحلت الأسرة فعلاً إلى ولاية اللينوى ، واستمر إبراهيم يعيش مع الأسرة لفترة قصيرة حتى عاونها في إقامة المأوى الجديد . وعندئذ قرر إبراهيم أن ينفصل عن الأسرة ليبدأ حياته الخاصة . وهكذا حمل فأسه على كتفه وبدأ خطواته الجديدة في هذه الحياة .

وكان أول الأعمال التي كلف بها عمسلا شاقا
مضنيا ولكنه ففتح أمامه آفاقا جديدة . . لقد كلف
بالاشتراك في نقل حمولة مركب الى مدينة نيو أورلينز
. . وكان عليه أولا أن يشترك في تشييد طوف كبير
على شكل مركب مسطح مصنوع من جذوع الاشجار
المشدودة الى بعضها بالحبال .

وفي النهاية وصل الطوف بحمولته من البضائع
الى تلك المدينة الكبيرة . . وراى أبراهام نيو أورلينز
لأول مرة .

٨ - العبيد في نيواورلينز

وفي خلال الشهر الأول من اقامته في تلك المدينة رأى ابراهام عملية تجارة العبيد في أسوأ صورها . . . ومن المحتمل أن ما رآه من سوء حالة العبيد قد أثر في فكره ومشاعره الانسانية تأثيرا شديدا ظل يلزمه طوال حياته .

منذ سنوات طويلة كان التجار . . . يجلبون عشرات ومئات الآلاف من زنوج أفريقيا ليبيعوا في العالم الجديد ، ويعملون عبيدا في حقول القطن في الولايات الجنوبية . . . وفي جرائد المدينة كان ابراهام

لينكولن يقرأ اعلانات مثل :

للبيع : مجموعة من البنات اعمارهن من (١٠) الى (١٨) سنة . وامرأة عمرها (٢٤) سنة وامرأة أخرى عمرها (٢٥) سنة معها ثلاثة اطفال اذكيا .

للشراء : أريد أن اشترى (٢٥) زوجيا من الرجال والنساء . تتراوح اعمارهم ما بين (١٨) و (٢٥) سنة وعمل استعداد أن ادفع أعلى سعر .

وكان لينكولن يتجول كثيرا في سوق العبيد بنيو اورلينز . . . وكان يستمع الى المفاوضات التي تتم بين البائعين والمشتريين وكانهم كانوا يتفاوضون في بيع حصان أو أى حيوان آخر . . . وكان لينكولن يشمئز من سماع تلك المفاوضات والمجادلات حول بيع وشراء الانسان . . . وقد كتب - فيما بعد - يصف احساسه نحو هذه العملية الشنيعة : « لو كان في مقدورى أن أوقف كل ذلك ، لأوقفته فورا وبسنتهى العنف ! » .

وعندما عاد مرة أخرى الى الولايات الشمالية ،
وجد عملا كبائع فى مخزن صغير للحاجيات فى احدى
المدن الصغيرة ٠٠ وهناك عرفه الناس على حقيقته
وكانوا يحترمونه ويقدرونه حق قدره ٠٠ وكان هو
من جانبه على استعداد لمعاونة كل الناس ٠٠ فاذا كانت
هناك امرأة فقيرة تريد بعض الأخشاب للمدفأة ، كان
يقوم بقطع بعض الفروع الجافة من الاشجار ويعطيها
للمرأة ٠٠ واذا غرزت عجلات احدى العربات فى الطين
وأصبحت غير قادرة على الحركة ، كان هو أول المتقدمين
لمعاونة السائق حتى يخرج العربة من مأزقها ٠٠ واذا
اخطأ فى مرة وأعطى أحد المشترين أقل مما يستحقه ،
فإنه لا ينام الليل قبل أن يصحح خطأه ويعطى للمشتري
حقه ولر سار من أجل ذلك أميالا طويلة .

لقد اشتهر بين جميع الناس فى تلك المدينة
الصغيرة بقوته وأمانته وقلبه الطيب الرحيم وأطلق
عليه الناس اسم « الأمين » .

٩ - العراق

وفي تلك المدينة الصغيرة ، كانت مجموعة من الشبان ذوي الطباع الخشنة ، يرأسهم رجل قوى اسمه « جاك أرمسترونج » . وأعلن هؤلاء الشبان أن رئيسهم يستطيع أن يهزم لينكولن في المصارعة بسهولة فائقة . ولكن أحد التجار تحدى هؤلاء الشبان وقال ان لينكولن أقوى من أرمسترونج ويستطيع أن ينتصر في هذه المصارعة . . ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت المدينة الصغيرة كلها تنجادل في هذا الموضوع .

ويطلب لينكولن كل ما في وسعه حتى لا يستدرج
الى هذا العراك . ولكنه وافق في النهاية حتى لا يفقد
احترام الناس ويظنوا أنه جبن وخاف .

وفي اليوم الموالي للعراك . توجه كل الناس الى
ميدان المعركة ، وكلهم كانوا شغوفين بمعرفة النتيجة
وأى من الرجلين سيهزم الرجل الآخر . وكان وزن
لينكولن في ذلك الوقت نحو (١٨٠) رطلا (نحو
٨١٦ رطلا) . وكان يتميز بذراعين طويلتين
وقويتين .

ومما أن بدأت المباراة حتى تبين لجماعة
أرمسترونج أن لينكولن لا يقل عن رئيسهم قوة ولا ذكاء
.. لذلك فقد حاولوا التدخل في العراك لصالح
رئيسهم ، فغضب لينكولن أشد الغضب ، فهاجم على
غريمه ورفع بذراعيه القويتين في الهواء وأطاح به على
الأرض غير قادر على الحركة . وبعد أن انتهى لينكولن
من أمر أرمسترونج ، دعا كل أفراد الجماعة للعراك
معه ، وقال انه سوف يهزمهم جميعا ..

• وعندئذ تحرك أرمسترونج وقام من رقبته وأمسك بيد لينكولن ورفعها قائلا أن المعركة كانت عادلة وأن لينكولن هو المنتصر •• وأن لينكولن هو أقوى الرجال في تلك المدينة •

وهكذا حلت الصداقة محل العداوة • وأصبح لينكولن ضيفا مكرما في أى بيت من بيوت أفراد تلك الجماعة ورئيسها • وسنرى فيما بعد أن لينكولن قد أنقذ حياة أحد أبناء جاك أرمسترونج •

١٠ - محاربة الهنود الحمير

ولم يمر سوى أقل من عام ، حتى أغلق صاحب المتجر الذى كان يعمل فيه لينكولن حانوته • وأصبح لينكولن بالتالى بلا عمل • • وأصبح يقضى وقته فى القراءة والتحدث مع أحد المدرسين •

ثم انضم بعد ذلك الى جماعة من الرجال أراد حاكم ولاية الينسوى استئجارهم للدفاع ضد هجوم متوقع من جانب الهنود الحمير الذين كانوا يريدون استرداد الأرض التى باعوها من قبل •

وعندما اجتمع هؤلاء الرجال فى ساحة المدينة

الصغيرة ، اختاروا على الفور لينكولن رئيسا لهم . وقد
فوجيء هو بهذا الاختيار واعتبره تشريفاً وتكريماً له .
بل اعتبره أفضل من أى تشريف أو تكريم قدم له خلال
حياته التالية .

ولحسن الحظ لم يحدث أى هجوم من جانب
الهنود الحمر . وبعد ثلاثة شهور عاد الرجال الى
بيوتهم دون أن يدخلوا مع الهنود الحمر فى أية معركة
بل ولم ير لينكولن من الهنود الحمر سوى هندي واحد
من الهنود المسلمين ، كان بعض الجنود قد اعتقلوه
وقرروا اعدامه لولا أن تدخل لينكولن وأنقذ حياته .

١١ - لينكولن صاحب متجر

ولكن يبدو أن عمل لينكولن كبائع فى متجر كانت تجربة لم تخرج به من حياته . . فقد اشترك لينكولن مع شخص يسمي « بيرى » فى شراء متجر لبيع الحاجيات . ولكن لا هو ولا بيرى كانا يملكان كثيرا من النقود ، لذلك فقد اقترضا بعض الأموال حتى يتمكنوا من شراء المتجر .

ولكن هذه التجربة لم تحقق أى نجاح ، وذلك لعدة أسباب منها كثرة وجود المتاجر المماثلة فى تلك المدينة الصغيرة ، ومنها سبب رئيسى يرجع الى لينكولن

نفسه ، فقد كان لا يقبل على عمله كبائع في هذا
المتجر بالحماس الواجب . . كان منصرفا الى قراءة الكتب
اثناء عمله بالمتجر . بل وحين كان يحضر بعض الزبائن
للشراء ، كانوا يجدونه جالسا في ظل شجرة خلف
المتجر ومستغرفا في القراءة . . وأحيانا كثيرة كان
يقوم بوزن السكر أو الدقيق لأحد الزبائن بيده واحدة ،
أما يده الأخرى فتظل ممسكة بكتاب لا يرفع عينه عن
صفحاته .

١٢ - فى قاع البرميل

وكان عدد الزبائن الذين يترددون على المتجر .
يتناقص كل يوم . لذلك فقد كان لينكولن يجد فرصة
أكبر لمواصلة القراءة دون الاضطرار لقطعها حتى يلبي
طلب احد هؤلاء الزبائن .

وفى يوم ما جاءه زبون . . كان شخصا مهاجرا
الى الغرب ومعه برميل قديم يريد أن يبيعه حتى يواصل
طريق هجرته . . وكان لينكولن لا يريد شراء البرميل ،
ولكنه مع ذلك اشتراه من الرجل وأعطاه نصف دولار
ثمنا لهذا البرميل القديم .

وحين أراد لينكولن تنظيف البرميل والقاء ما به
من أوراق قديمة ، دهش كثيرا عندما عثر على كتاب
قديم بقاع البرميل . . وكان كتابا في القانون . . كان
كتابا لا يستغنى عنه المحامون . . وكان يبدو كما لو
كان يقول للينكولن : « هأنذا . . خذنى واقرأنى . .
لقد ولدت لتكون محاميا ! » .

وقرا لينكولن هذا الكتاب بكل الشغف وكل
التركيز . .

وفى أسفه الأيام علم لينكولن أن شريكه بيرى قد
فر هاربا من المدينة الى مكان مجهول حتى يتنصّل
من الوفاء بما عليه من ديون . . وكان فى وسع لينكولن
أن يفر هو أيضا ، أو يفعل مثلما يفعل الكثيرون من غير
الأمناء .

ولكنه طلب من الدائنين أن يمهلوه الى حين ميسرة
ووعدهم بأنه سيرد اليهم أموالهم مهما اقتضى الأمر . .
وهكذا كلما استطاع لينكولن أن يدخر بعضا من

النقود ، كان يدفعها كلها وفاء لهذا الدين . .
ومن الغريب أنه ظل يدفع أقساط هذا الدين
لسبع عشرة سنة متوالية . . حتى انتهى أخيراً من دفع
جميع ما كان عليه من ديون .

١٣ - لينكولن صانع القانون

وكانت السنوات التالية من حياة لينكولن سنوات صعبة حافلة بالجهد والعمل .. فقد اكتسب محبة الناس واحترامهم . وربما كان نجساحه في الانتخابات واحتلاله مركزا مرموقا في حكومة الولاية يرجع أساسا الى اقتناع الفلاحين والناس البسطاء به وتأيدهم له ، باعتباره شخصا بسيطا مثلهم يمكنه أن يفهم مطالبهم وآمالهم ويستطيع أن يرفع صوتهم الى حكومة الولاية .. لقد أحبه هؤلاء الناس وساعدوه مثلما كان يساعدهم .

• وعندما نجح في الانتخابات لأول مرة ، ذهب
الى أحد أصدقائه من المزارعين وسأله : « هل اخترتني
في الانتخابات ؟ » • فلما أجاب الصديق بالإيجاب ،
قال له لينكولن : « حسن .. أنا أريد الآن أن اشترى
بعض الملابس اللائقة بدلا من ملابس القديمة .. وأريد
أن اقترض مائتي دولار ! » •

ولأنه كان مازال قليل الخبرة بأعمال الحكومة
فلم يحاول أن يتقدم أو يتولى المناصب الرئيسية
القيادية ، بل عمل في صمت لخدمة الناس ، واكتسب
أيضا محبة واحترام زملائه في الحكومة •

وكان انتخابه لأول مرة في سنة ١٨٣٤ يعتبر
فاصلا بين مرحلتين من حياته .. فقد كان نهاية
للمرحلة الفقيرة القلقة التي عاشها بين فقراء المزارعين
الذين يرحلون من مكان الى آخر سعيا وراء الرزق أو
ما يسد رمقهم .. كما كان بداية لمرحلة أخرى من
الحياة يحتك فيها بكثير من المتعلمين والمتنصرين
وأصحاب الأفكار الجيدة •

وخلال السنوات الثماني التي قضاها لينكولن
كعضو منتخب في حكومة الولاية ، كان يدرس القانون
ليل نهار . وبعد انقضاء هذه السنوات رحل الى مدينة
سبرنج فيلد بولاية الينوي . وهناك التحق بمكتب
محام كبير وبدأ ممارسة مهنة المحاماة . وكان عمره
أيامئذ نحو تسع وعشرين سنة . ولم يكن في جيبه
أكثر من سبعة دولارات ، لا تكفي حتى لتأجير غرفة
مناسبة يعيش فيها . . . ولكنه مع ذلك بدأ هذه المرحلة
من حياته بروح متفائلة مستبشرة . .

١٤ - لينكولن المحامى

وظل لينكولن يعمل بالمحاماة على مدى خمس وعشرين سنة متواصلة . . عرف خلالها بأنه المحامى الأمين الذى لا يتكلم الا بالحق والذى لا يصنع الا ما يظن أنه الصواب والعدل . . وكان يساعد الناس فى حل مشاكلهم . فعندما يتشاجر شخصان أو يتنازعان على شيء ما ، كان يقنعهما بحل المشاكل بطريقة ودية بدلا من اللجوء الى المحاكم . . وكان اذا شعر بأن أحد زبائنه لم يكن على صواب أو يطالب بشيء غير الحق ، كان يمتنع على الفور عن الدفاع عنه . . وكان لا يحصل

من الزبائن الا على أجر عادل ليس فيه اجحساف
بحقوقهم *

وعندما كان الناس يتحدثون عنه او يلوكون
سيرته طيلة هذه السنوات ، كانت اقرالهم لا تخرج
عن الأقوال التالية :

١ - ياله من شخص طويل قوى العضلات سريع
الحركة غير انيق في ملبسه او في علامحه !

٢ - كم هو قادر على ذكر القصص الطريفة التي
تسر السامع .. وكم هو دحيم وطيب القلب !

٣ - انه يشعر بحزن عميق ويلزم الصمت في
بعض الأحيان !

٤ - انه يتطلع دائما لاية فرصة يتعلم فيها
شيئا جديدا !

٥ - كم هو مستعد دائما لمعاونة اى صديق وائى
غريب ، بل وائى حيوان اعجم !

وفي تلك الأيام كان قاضي المحكمة يتنقل بمحكمة
من قرية الى قرية ، ومن مدينة صغيرة الى مدينة صغيرة
أخرى . . وكان المحامون - ومن بينهم لينسكولن -
يتتبعون هذه المحكمة أينما ذهبت أو تنقلت . . ولذلك
فقد ذاع صيته واتسعت آفاق شهرته . .

١٥ - براءة بدلا من الاعدام

وفي يوم ما ترك لينكولن كل أعماله وسافر
ليواسى أرملة صديقه القديم جاك أرمسترونج بعد
موته بأيام قليلة . وهناك علم أن «داف» ابن أرمسترونج
قد وقع فى مأزق خطير . . حيث وجهت اليه تهمة
القتل ، وهى جريمة عقوبتها الاعدام .

وكانت وقائع تلك التهمة تتلخص فى أن « داف »
ورجلا آخر قد شربا كثيرا من الخمر حتى سكرا ، ثم
بدأ فى الشجار والعراك ، حيث وجه « داف » ضربة

قوية نحو رأس غريمه ، فسقط على الأرض .. وبعد
خمسة أيام مات الرجل .

وبالرغم من أن لينكولن يعرف الكثير عن أسرة
أرمسترونج .. ويعرف أن الابن داف كان طائشا ..
الا أنه كان مقتنعا بأن داف مهما كان سيئا ، الا أنه
لا يمكن أن يقدم على قتل انسان أو يجعل القتل أحد
أهدافه .. لذلك أصر لينكولن على الدفاع عنه وتبرئته
وانقاذه من حبل المشنقة .

وكان الشاهد الوحيد يعمل نقاشا اسمه «ألين»
.. وكان قد شهد بأنه رأى المشاجرة التي حدثت بين
الرجلين ، ورأى « داف » وهو يوجه الضربة القاتلة الى
رأس غريمه . وكانت شهادته على النحو التالي :

س : متى حدثت المشاجرة ؟

ج : بين الساعة العاشرة والحادية عشرة مساء .

س : وهل كان هناك ضوء كاف يمكنك من رؤية
كل تفاصيل العراك ؟

ج : كان القمر يدور كاملاً . . وكان يتخذ في السماء موضعاً مثل موضع الشمس في الساعة العاشرة صباحاً .

وقدم لينكولن الى المحكمة كتاباً علمياً يثبت أن القمر قد غرب في منتصف الليلة التي حدث فيها العراك . وأنه لذلك يكون مائلاً تماماً نحو الغرب فيما بين الساعة العاشرة والحادية عشرة من تلك الليلة . وبالتالي يكون القمر خافت الضوء بطريقة لا يمكن معها رؤية تفاصيل العراك بوضوح . . وبما أن هذا الشاهد قد كذب في موضوع ضوء القمر ، فمن المحتمل أن يكون قد كذب أيضاً في موضوع تلك الضربة القاتلة . .

وتراجع لينكولن امام المحلفين الاثنى عشر الذين سيقررون ما اذا كان داف مداناً أم بريئاً . . أوضح لهم انه يعرف أسرة أرمسترونج منذ مدة طويلة ، ويعرف انها أسرة عادية ، قد تكون قد ارتكبت أخطاء عادية مثل الأسر الأخرى . ولكنها لم تكن أبداً أسرة شريرة . . وأوضح لهم أيضاً أن الابن داف قد يكون

شبابا متهورا أو طائشاً مثل الكثيرين من قرنائه من الشباب... وأن هذا الدرس الذي تلقاه في هذه التجربة المريرة سيجعله ملتزماً بسلوك أفضل بين الناس... ولذلك فإن من الظلم أن يحكم عليه بالاعدام لجريمة لم يرتكبها...

وهكذا حكمت المحكمة ببراءة داف أرمسترونج... وعندما أطلق سراحه قال له لينكولن نصيحة غالية : « فلتذهب الآن يا داف الى بيتك... ولتسكن شبابا صالحا... واياك ان تضع نفسك مرة أخرى في مشاكل جديدة ! »

١٦ - مسألة العبيد

وخلال عمل لينكولن بمهنة المحاماة • فإنه لسم
ينخل تماما عن دوره الحكومى • • فقد اتسمت اهتماماته
وشملت موضوعات كثيرة كان أهمها موضوع العبيد •

وكانت مسألة العبيد تشغل بال الكثير من
الأمريكيين فى تلك الفترة • فقد كان المهاجرون
يتدفقون فى أعداد كبيرة نحو الغرب ، وأخذوا يهيئون
الأرض للزراعة على نطاق واسع ، وينشئون العديد
من القرى والمدن والولايات الجديدة •

وكان نظام استخدام العبيد مستوحا به فى

الولايات الجنوبية ، وغير مسموح به في الولايات الشمالية ٠٠ ولكن ماذا عن الولايات الجديدة التي بدأت تنشأ في الغرب ؟ ٠٠ هل يسمح فيها بتطبيق نظام استخدام العبيد ٠٠ أم يحرم فيها هذا النظام كما هو الحال بالنسبة للولايات الشمالية ٠٠ ؟

انقسم الناس في هذا الأمر واختلفوا ٠٠ بعض الناس يقولون نعم ٠٠ وبعضهم يقولون لا ٠٠ وآخرون يقولون ان حسم هذا الموضوع يجب ان يترك لسكان هذه الولايات الغربية الجديدة ليقرروا بأنفسهم النظام الذي يرغبون في تطبيقه ٠٠ كان الموضوع شائكاً وعويصاً ، ولكنه كان على قدر كبير من الأهمية .

وكان « ستيفن دوغلاس » يعتبر في تلك الفترة أحد القادة الكبار في الولايات المتحدة الأمريكية وكان شخصاً ذكياً يتمتع بشخصية قوية وبقدرة فائقة على الخطابة . وكان محل إعجاب الجماهير الأمريكية . وكان دوغلاس يرغب في ترشيح نفسه ليصبح رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية ٠٠ لذلك فقد كان يحاول

ارضاء سكان الولايات الجنوبية وارضاء سكان الولايات الشمالية في نفس الوقت . ولكنه لم ينجح في ارضاء هؤلاء ولا أولئك .

اما ابراهام لينكولن فقد كان لا يرى وجوب تحرير العبيد مرة واحدة أو القاء هذا النظام هكذا بجرة قلم . ولكنه كان يؤمن تماما بأن نظام العبودية نظام كرية وغير انساني . وبالتالي فقد كان لا يريد تطبيق هذا النظام أو السماح به في الولايات الجديدة . وكان يقول في هذا الشأن :

« عندما يحكم الرجل الأبيض نفسه بنفسه . . فهذه هي الحكومة الذاتية . . ولكن عندما يريد الرجل الأبيض أن يتحكم في غيره من الملونين فهذا هو الاستبداد والظلم . . ولا يجب اطلاقا أن يتحكم الانسان في أخيه الانسان دون رغبة هذا الأخير وموافقه . »

وهكذا بدأت معركة الحرية وتحرير الانسان من قيود العبودية . وما أن شرع لينكولن في أول خطواته

فى تلك المعركة ، حتى قرر أن يواصل جهوده حتى
النهاية . وكتب لأحد أصدقائه خطاباً يقول فيه :

« انى أومن بوجود الله .. وأعرف أن الله لا يقبل
الظلم ولا يرضى بأن يستعبد الانسان أخاه الانسان ..
وانى أرى أن العاصفة قادمة لا محالة .. وأعرف أن الله
معى .. وأنا مستعد ان أبذل كل جهدى وحياتى لتحقيق
الحق .. فأنا لا شىء على الإطلاق .. أما الحق والعدل
فهما كل شىء ! » .

١٧ - لينكولن ودوجلاس

سافر لينكولن ودوجلاس الى جميع أنحاء ولاية
اللينوى ، وعقدا عدة اجتماعات حضرها آلاف من الناس
وفي كل اجتماع من هذه الاجتماعات كان كل منهما
يخطب في جماهير الحضور لعرض أفكاره ومبادئه
ومعتقداته .

وكانت الجماهير تصغي الى كل منهما بدهشة
وانبهار . فقد كان دوجلاس خطيبا بارعا مفوها . كما
كان لينكولن خطيبا بسيطا وقويا في نفس الوقت
وكلامه يدخل الى القلب مباشرة . .

وانقسم الناس حيال هذين الخطيبين . فكان بعضهم يؤيد أفكار دوجلاس ، وبعضهم يؤيد أفكار لينكولن . . وربما كانت هذه الخطب التي ألقاها لينكولن هي التي أذاعت شهرته في أوسع الآفاق ، كما أن الأفكار التي نادى بها في تلك الخطب أكسبته المزيد من التأييد والاحترام .

وقد أجريت انتخابات الرئاسة سنة ١٨٦٠ . . وعندما أعلنت نتيجة هذه الانتخابات . . علت الدهشة وجه لينكولن ووجه كل أصدقائه ومؤيديه . . لقد أصبح أبراهام لينكولن . . ذلك المحامي الريفى البسيط الذى لم يكن معروفا منذ سنوات قليلة ، رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية .

١٨ - فى البيت الأبيض

وفى ١١ فبراير ١٨٦١ ٠٠ غادر لينكولن بلده
سبرينج فيلد لبدء رحلته الطويلة الى واشنطن .
مصحبا معه زوجته وأبناءه الثلاثة الصغار ٠٠ وقبل
أن يبدأ القطار مغادرة المحطة ، رفع لينكولن قبعتيه
تحيه لودعيه من الأصدقاء والجيران ، وترقرقت في
عينيه الدموع وهو يلقي فيهم خطبة قصيرة قال فيها :
« أصدقائى ٠٠ انى مدين لهذا المكان وأهل هذا المكان
بكل شئ ٠٠ لقد عشت بينكم هنا أيها الناس الغليون
٠٠ عشت بينكم كل صباى وشباى ٠٠ وفى هذا المكان
أيضا ولد أبنائى ٠٠ وفيه أيضا دفن أحد أبنائى

.. وانا اترككم الآن .. دون أن أعرف متى اعود اليكم
.. بل ودون أن اعرف ان كنت ساعود اليكم أم لا ..
ولكن الله سيكون معي هناك في واشنطن وسيكون معكم
ايضا في نفس الوقت .. فنقوا في الله كما انى فيه ..
ولندعوه جميعا أن يلهمنا القدرة على فعل الخير والعمل
الصالح ..» ..

وهكذا بدأ لينكولن عمله الصعب وهو يتق في
الله .. وفي واشنطن تقلد منصب رئيس الولايات
المتحدة الأمريكية في جو تكتنفه اصعب الظروف .

كانت هناك سبع ولايات جنوبية اعلنت انفصالها
عن الاتحاد واختارت لنفسها رئيسا آخر .. لأن هذه
الولايات كانت تعتمد على نظام استخدام العبد . وهو
نظام انت تعارضه الولايات الشمالية .

كانت الولايات الشمالية نفسها تعاني من بعض
الاضطرابات .. وكان معنى السماح بانفصال الولايات
الجنوبية أن الدولة كلها ستنتهار ولن تكون هناك أمة
أمريكية موحدة .. فما العمل !؟

كان على الرئيس لينكولن أن يحدد الإجابة على
هذا السؤال .. كان عليه أن يجد حلا لكل هذه
المشاكل الشائكة البالغة الصعوبة والتعقيد .. وذلك
بالرغم من أنه كان قليل الخبرة بمثل هذا النوع من
المشاكل المعقدة .. وبالرغم من أنه كان محاطا بمجموعة
من المستشارين الضعاف .. بينهم مستشار كان يظن
في نفسه القدرة على حل كل تلك المشاكل .. وكان
يرغب في أن يترك له الرئيس حرية التصرف في كل
شيء ..

١٩ - وِبدأت الحرب الأهلية

وتلاحقت الأحداث بسرعة شديدة .. كانت هناك قلعة اسمها « فورت سومتر » تقع في إحدى الولايات الجنوبية .. وكان يشغلها جنود تابعون للولايات الشمالية .. وطلب جنود الجنوب من جنود الشمال ان يسلموا القلعة لهم ويرحلوا ..

رفض جنود الشمال هذا الطلب ، فهاجم جنود الجنوب على القلعة لمدة يومين متواصلين حتى سقطت القلعة في أيديهم .. وهكذا بدأت الحرب الأهلية الكبرى بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية .

واستنفر الرئيس لينكولن جيش الشمال ، كما أعد الولايات الجنوبية جيشها وجهزته للحرب . . وسرت ما نشبت المعارك بين الفريقين .

استمرت هذه الحرب الأهلية الكبرى على مدى سنوات أربع طويلة . . سقط فيها قتلى مئات الآلاف من شباب الفريقين . ولم يعد هناك سوى الحزن العميق والمعاناة الشديدة وأخبار الموت في كل هذه الولايات المتحاربة .

وازداد الأمر سوءا حين انقسمت الأسر على نفس وأصبح بعض أفراد الأسرة الواحدة يؤيدون الشمال وبعضهم يؤيدون الجنوب وكان كل فريق منهما ينضو إلى الجيش الذي يؤيده . . وهكذا أصبحت الأسرة الواحدة تحارب بعضها بعضا ، كما أصبح الأخ يحار أخاه . .

وكانت الولايات الشمالية سيئة العظ في بدا الحرب ، خصوصا بالنسبة لسوء اختيار الضباط الذين كانوا يتولون قيادة الوحدات المحاربة . كما كان الجنر

فى جيش الجنوب يحاربون بشجاعة وحماس زائد ..
ودارت المعارك الحربية فى الشمال وفى الجنوب وفى
الغرب .. وكان كل من الفريقين يتعرض للهزيمة
أو يحوز النصر حسب أحوال كل معركة .. وجاء وقت
أوشك فيه جيش الجنوب أن يصبح قريباً من واشنطن
نفسها . ولكنه سرعان ما أجبر على التقهقر .. وهكذا
ستمرت المعارك تدور وتشتد بين الجنوب والشمال
حتى أصبح الكثيرون يظنونها حرباً بلا نهاية !

وكان الرئيس لينكولن يدير الأمور من مقره فى
البيت الأبيض وقلبه مغمم بالحزن العميق .. ولكنه
كان ثابت الجاش ، يثق تماماً فى أن السلام سيعود
مرة أخرى إلى الولايات الأمريكية ، وستعود الولايات
المتحدة الأمريكية دولة موحدة ..

كان كثيرون يشتكون من تصرفاته وأوامره ،
ولكنه كان يستمع إليهم بهدوء وصدر رحب .. وكان
البعض يقفون ضده علناً ولكنه لم يتخذ ضدهم أى إجراء
غاضب .. كان قلبه الكبير يتسع لكل تلك المتاعب

والمشاق ٠٠ وازداد تمسكه بأن تصل الأمور الى نهايتها
المحتومة ، وهي اقرار السلام وعودة الأمور الى نطاقها
السليم ٠

ورويدا رويدا بدأ الناس البسطاء العاديون في
كل الولايات يشعرون بأن الرئيس الجالس في البيت
الأبيض رئيس عظيم ، ورجل من أعظم الرجال الأمريكيين
المخلصين ٠

ولكن لينكولن كان له عيب خطير وحيد ، كان
يسبب قلقا لدى معظم ضباط الجيش ٠٠ فقد كان
يحب الناس حبا جما ، وكان يقدر الضعف الانساني
الذي قد يصيب أى واحد من البشر ، ولذلك فقد
كان يعفو عن الأخطاء التي قد يرتكبها أى انسان
ويحاول في الوقت نفسه أن يعيد هذا الانسان المخطئ
الى سواء السبيل ٠

كان لينكولن يعارض مثلا في منح وحدات الجيش
حق انشاء محاكم ميدانية لمحاكمة الجنود الذين يفرون
من المعركة أو الذين يضبطون نائمين أثناء نوبتهم في

الحراسة واصدار الحكم باعدامهم • وكان يقول دائما
يجب العفو عنهم واعطائهم فرصة أخرى •• ولكن
ضباط الجيش كانوا لا يفضلون مثل هذه الطريقة
الرحيمة في معالجة مثل هذه الاخطاء العسكرية التي
كانوا يعتبرونها من الجرائم الخطيرة التي تستحق
عقوبة الاعدام •

كذلك فقد كان يستجيب لرغبة أم تذرف الدموع
مطالبة بالعفو عن ابنها •• أو يستجيب لصيحة غلام
صغير يتوسل مطالبا بالعفو عن أبيه •• كانت مثل
هذه الأشياء تمس شغاف قلبه ••

٢٠ - ليتكولن والجندى

والقصة التالية تعتبر نموذجاً لما سُمّاه البعض « ضعف الرئيس » . . . ففي أحد الأيام وصل ضابط برتبة كابتن ومعه بعض الجنود الى البيت الأبيض ليعرض على الرئيس موضوع أحد الجنود الشبان الذى ضبط قائماً اثناء نوبة الحراسة وقرر قادة الوحدة العسكرية التى ينبعها هذا الجندى الحكم باعدامه رمياً بالرصاص .
واستعطف الكابتن الرئيس لكى يتدخل فى الأمر لانقاذ هذا الجندى من الاعدام . . .
وبعد بضع ساعات قليلة ، اندهش هذا الجندى

المحبوس تحت الحراسة في إحدى الخيام حين رأى الرئيس
أمامه . وكان الرئيس في الوقت نفسه يعتبر قائدا
أعلى لجيش الولايات الشمالية .

سأل الرئيس الجندي عن بيته واسرته ومزرعة
الأسرة . . وشاهد صورة الأم التي كان يحتفظ بها
الجندي . وقال له الرئيس .

— لقد نشأت أنا نفسي في مزرعة مثل مزرعة
أسرتك . وإذا قررت أن أعفو عنك وأطلق سراحك . .
فإن عليك أن تدفع ثمنا غاليا نظير ذلك !

فتهلل وجه الجندي بالبشر والفرح وقال :

— اني متأكد ياسيدي أن أبي سيفرح لذلك وأنه
على استعداد أن يبيع جزءا من أرض المزرعة ليدفع الثمن
المطلوب . .

وقال الرئيس :

— لا . . ليس هذا كافيا . . ان عليك وحدك أن
تسدد هذا الثمن . . وهو أن تثبت أنك جندي شجاع
مخلص لجيش الاتحاد !

ووضع الرئيس يده على رأس الجندي حين أقسم
الجندي بأنه سيكون مخلصا للجيش وسيكون محلا لثقة
الرئيس .. وسيحارب بكل ما يملكه من شجاعة .

ودفع هذا الجندي الثمن فيما بعد . فقد أثبت
شجاعة فائقة في الحرب ، وبينما كانت المعركة مع العدو
على أشدها ، قفز هذا الجندي الى النهر لينقذ بعض
الجرى من زملائه الجنود .. وظل يقوم بهذه العملية
الى أن أصيب برصاص العدو اصابة بالغة .. وحين كان
يحتضر ويلفظ آخر أنفاسه .. كان يشكر الرئيس الذي
أتاح له هذه الفرصة لكي يستشهد بشجاعة في سبيل
وطنه !

٢١ - تحرير العبيد

كان أبراهام لينكولن يكره نظام العبودية الى أقصى حد . ولكنه كان يدرك عدم امكان اطلاق حريات كافة العبيد دفعة واحدة ، ودون أن يتسم تعويض ملاك العبيد . . وكان يعرف جيدا أن مثل هذا القرار سيغضب الولايات الجنوبية .

وكان الهدف الأول أمامه هو إعادة توحيد الأمة وعدم تجزئة الولايات المتحدة الأمريكية ، وكتب في هذا الشأن يقول : « ان أهم أهداف هذه الحرب الأهلية هو إعادة توحيد الأمة . . ولو كان في استطاعتى أن أحقق

هذا الهدف دون تحرير العبيد لفعلت . . ولو كان في استطاعتى أن أحقق هذا الهدف مع تحرير العبيد في نفس الوقت لفعلت ذلك على الفور . . وكل ما سوف أقعله نحو العبيد والملونين بصفة عامة هو في صالح الاتحاد .

وبينما كانت الحرب مستمرة كان لينكولن يقول دائما ان من المستحيل ان تكون هناك دولة موحدة نصفها من العبيد ونصفها الآخر من الأحرار . . ويجب أن يلغى نظام العبودية . .

وكان عليه أن يتخذ قرارا شجاعا . .

فبينما كانت الحرب دائرة . . وقع أبراهام لينكولن على وثيقة في غاية الأهمية . أعلن فيها تحرير جميع العبيد في الولايات المنفصلة التي أعلنت الحرب على الاتحاد . . وكان معنى هذا القرار هو اعلان تحرير نحو ثلاثة أو أربعة ملايين من العبيد عند انتهاء الحرب لصالح الاتحاد .

٢٢ - خطبة جتيسبورج

وقعت أشرس معارك هذه الحرب في منطقة جتيسبورج . . ففي هذه المعركة اندحر جيش الجنوب وانهزم هزيمة ساحقة وانسحبت فلولسه عائدة الى الولايات الجنوبية . . وقد سقط في هذه المعركة عدة آلاف من الجنود والضباط من الجيشين المتحاربين . . وقد دفن هؤلاء القتلى جميعا حيث سقطوا في ميدان المعركة .

وقد نظم عقد اجتماع كبير في نفس المكان الذي دارت فيه تلك المعركة الكبيرة ، وذلك لتكريم الجنود

الشمجعان الذين قتلوا من الجانبين المتحاربين ، وحضر الاجتماع عدة آلاف من الناس من كافة المناطق المحاذرة . وذلك للاستماع الى الخطب التي سوف يلقيها « مستر ايفريت » ممثل الجنوب ، وأبراهام لينكسولن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية .

وكان « مستر ايفريت » عميدا لاحدى الكليات . وعلى علم واسع ، وخبرة لا حد لها نتيجة اسفاره الى الخارج مرات عديدة . وبالإضافة الى ذلك ، فقد كان متمكنا من فن الخطابة وله قدرة فائقة على الافئاع . ووقف « مستر ايفريت » وألقى خطبة جساوزب الساعتين .

ولم يكن أمام لينكسولن كثر من الوقت ليعسد خطبته . . . لدرجة انه انتهى من كتابة هذه الخطبة قبل أن يشرع فى التوجه الى جتيسبورج بدقائق قليلة . وقف لينكولن أمام كل هذا الجسم الحامل ، بجسمه الطويل النحيل ، ووجهه الذى ترتسم عليه كل ملامح الحزن بسبب هذه الحرب . . .

ظل صامتا لحظة ، ثم بدأ يتكلم كما لو كان
لا يرى كل هذا الجمهور أمامه .. تكلم ببطء ولكن
بصوت مرتفع لمدة ثلاث دقائق ثم جلس على مقعده !

وعندئذ التففت أحسد الرجال الجالسين جوار
« مستر ايفريت » وقال له : « يبدو أنه فشل في الرد
على خطبتك .. انى آسف له أشد الأسف » .

ولكن لينكولن قدم اليهم الخطبة مكتوبة .. وما
أن قراوها حتى تبين لهم وتبين لجمهور الحاضرين نبيل
المعاني التى تتضمنها هذه الخطبة .

كانت مكتوبة بلغة انجليزية رفيعة المستوى نحفن
بمعاني النبيل والعفو عند المقدرة .. وقد اعتبرت هذه
الخطبة واحدة من أعظم الخطب السياسية والوطنية فى
العالم . وقد اشتهرت خاتمتها التى تقول :

« ستشهد هذه الأمة برعاية الله مولدا جديدا
للحرية .. وان الحكومة التى أوجدها الشعب لصالح
الشعب لن تختفى من على وجه الأرض ا » .

٢٣ - نهاية الحرب الأهلية

وفي سنة ١٨٦٤ أعيد انتخاب لنكولن مرة ثانية رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية . . وكان له أعداء كثيرون كانوا يعملون على إسقاطه . . ولكن الأغلبية من الناس العاديين كانوا يشقون فيه وفي قدرته على قيادة الاتحاد في هذا الوقت العصيب .

وفي بداية فترة رئاسته الثانية ، كانت هنساك بواذر تؤكد قرب انتهاء الحرب . فقد أصبح جيش الشمال أكثر قوة ومقدرة ، كما أصبح قاداته أفضل مما كانوا عليه من قبل . . كذلك فقد بدأ جيش الحنوب

يتقهقر ببطء بعد أن منى بهزائم متوالية .

وعندما أدرك لينكولن أن الحرب أصبحت وشيكة
الانتهاء بنصر حاسم لجيش الشمال ، بدأ يضع خطط
ما بعد الحرب . كان عازي أن يقرر كيفية إعادة الولايات
الجنوبية المهزومة مرة أخرى إلى الاتحاد . . . وكان عليه
أن يقرر كيفية إعادة السلام بين الشمال والجنوب . .
وبين هؤلاء الذين رأوا يكرهون بعضهم بعضا ويقتلون
بعضهم بعضا ، كان عليه أن يزيل كل تلك الكراهية
ليحل محلها . . . والوثام . . . ليعيش الجميع كأمة
واحدة في واحدة . . .

٢٤ - الموت

ولكن كانت هناك تيارات لا تريد لكل تلك الأحلام أن تتحقق ، ولم تترك بالتالي فرصة للرئيس أن يحقق آماله وأحلامه لصالح الأمة . وكان هناك شباب جنوبي يدعى « جون بوث » . كان يكره الشماليين كلهم بما فيهم الرئيس ، وقد وضع هذا الشاب خطة لقتل الرئيس منذ مدة . . . ولكن الانتصارات الحاسمة التي حققها الشماليون جعلت هذا الشاب يعجل بنسفيته خطته .

وفي مساء ١٤ أبريل ١٨٦٥ . ذهب الرئيس ابراهام لينكولن ومعه زوجته الى أحد المسارح في

واشنطن . وكان « جون بوث » مستعدا لارتكاب جريمته
وأعد جميع الخطوات بعناية ودقة .

وتسلسل بوث بهدوء الى المقصوره التي يجلس بها
الرئيس وحرمه . وصوب مسدسه الى رأس الرئيس من
جهة الخلف ، وأطلق النار . ثم ضم يمينه أحد
الرجال الذين اسرعوا لمحاولة القبض عليه ، ولكنسه
استطاع أن يفلت منهم ، ثم قفز الى خشبة المسرح بين
الممثلين ، وانطلق الى حصان كان ينتظره عند الباب
المخلفى للمسرح .

ونقل الرئيس لينكولن الى بيت قريب عبر
الشارع ، وأسرع اليه الأطباء لاسعافه . ولكنه لفظ
آخر أنفاسه في صباح اليوم التالي .

ولا يمكن وصف مشاعر الناس في كل الولايات
المتحدة الأمريكية حين وصلتهم أنباء مصرع رئيسهم
المحبوب . لقد بكاه الرجال بالدموع . وحتى
الجنوبيين أنفسهم حزنوا عليه حزنا شديدا لأنهم ادركوا
أنهم قد فقدوا صديقا ذا قلب رحيم .

ونقلت جثته فى قطار حملها الى مدينه سبرنج
فيلد بولاية اللينوى . وفى كل ولاية وكل مدينه ،
كبيرة أو صغيرة وفى كل قرية وقف الناس صامتين
حدادا وحزنا واحتراما لهذا الرجل العظيم . الذى بدأ
حياته فى كوخ فقير مشيد بجذوع الاشجار . وانتهت
حياته وهو يعيش فى البيت الأبيض . وما زالت
ذكراه موضع الاحترام والتبجيل لدى الشعب الأمريكى
وفى جميع الولايات المتحدة الأمريكية .



اطلاق الرصاص على لينكولن •

مدام کوری

ولدت « ماريا سكلودوفسكا » في مدينة وارسو
عاصمة بولندا في سنة ١٨٦٧ . وكان أبوها يعمل
مدرسا في إحدى مدارس البنين . وكانت أمها ناظرة
لاحدى مدارس البنات .

وكان هذان الوالدان من طراز خاص . ولحسن
حظ أبنائهما أنهم نشأوا تحت رعاية هذين الأبوين .
في بيت يملؤه الحب العائلي وحب الكتب والدراسة .
كانت الأسرة بولندية . ونشأت ماريا منذ
طفولتها على حب وطنها بولندا . وكانت مثل هذه
المشاعر الوطنية محرمة على البولنديين في ذلك الزمن .
لأن روسيا كانت تحتل آنئذ جزءا كبيرا من الأراضي
البولندية . وكان قبصر روسيا يعامل البولنديين بمنتهى
العتف والغير . وأصدر أوامره بأن تحل اللغة الروسية
محل اللغة البولندية . وحرم على المدرسين تعليم اللغة



۱۸۹

ماری کوری

البولندية في المدارس كما حرم عليهم تدريس تاريخ
بولندا .

وظلت ماريا طوال عمرها تذكر تلك القصة التي
حدثت في الفصل المدرسي أثناء طفولتها .

١ - حين ظهر الخطر في حجرة الدراسة

كانت البنات الصغيرات جالسات على مقاعدهن بحجرة الدراسة ، ينصتن بشغف الى درس في تاريخ بولندا ، يلقيه عليهن المدرس باللغة البولندية . وكانت السلطات الروسية قد حرمت تدريس هذا التاريخ وتلك اللغة .

وفجأة دق الجرس . . دقتين طويلتين أعقبتهما دقتان قصيرتان . . وكانت هذه هي الإشارة المتفق عليها . . أن يدق حارس بوابة المدرسة الجرس بتلك الطريقة لينبه المدرسين بأن هناك شخصا قادما في طريقه الى المدرسة .

وبسرعة شديدة جمعت كتب التاريخ الخطرة
وأخفيت في مكان آمن ، وأخرجت البنات أدوات الخياطة ،
وتظاهرن بأنهن يتعلمن طرق الخياطة الصحيحة .

وفتح باب حجرة الدراسة . . ودخل موظف
حكومي كبير فخور بنفسه ويمشي بخيلاء بين صفوف
المقاعد . . وطلب الموظف أن تتقدم واحدة من البنات
الصغيرات لتجيب عن بعض أسئلة يريد القاءها .

عندئذ تقدمت ماريا وأعلنت استعدادها للإجابة ،
برغم أنها كانت أصغر بنات الفصل سنا ، ويقل عمرها
بنحو سنتين عن عمر أية بنت أخرى . كما كانت أكثر
البنات اجادة للغة الروسية .

قال الموظف بصوت مرتفع :

— رددى صلاتك . .

فرددت ماريا صلاة قصيرة باللغة الروسية . .
وواصل الموظف الكبير أسئلته للبنات الصغيرات :

— والآن . . ما اسم قيصر روسيا المقدسة . . ومن

هم أعضاء عائلة القيصر .. وما هي القابهم .. و
الذي يحكم هذه البلاد الآن .. ١٩٠٠

وأجابت ماريا على كل هذه الأسئلة بإجابات سريعة
وصحيحة .. جعلت الموظف الكبير يفادر حجرة الدراسة
راضيا مسرورا .

وعندئذ ناداها المدرس :

— تعالى يا صغيرتى العزيزة ..

فتقدمت ماريا الى المدرس الذي ربت على ظهرها
وقبلها .. فانهمرت الدموع من عينيها .. !

٢ - طفولتها وصباها

وحين بلغت ماريا العاشرة من عمرها ، ماتت أمها الحنون ، فكانت صدمة شديدة وقعت عليها وعلى الأسرة كلها . . الأب . . والأختين . . والاح الصغير .

وبذلت الأخت الكبرى « برونيا » قصارى جهدها لتحل محل الأم في خدمة الأسرة ورعايتها واحاطتها بالحب والحنان المفقود بموت الأم . ومع ذلك فقد امتلأ قلب ماريا بالحزن العميق لموت أمها وموت إحدى أخواتها من قبل . . ولم تفهم من معنى الموت في تلك السن المبكرة الا أنه حادث محزن رهيب يخطف أحبابها .

ودفنت ماريـا الصغيرة جميع هذه الأجزاء في الانغماس في دروسها . . وكانت تتميز بميزتين ظهرتـا بشكل واضح لكل أعضاء أسرتها ولكل مدرسيها وزملائها في المدرسة .

الميزة الأولى أنها كانت تفهم جميع دروسها بمنتهى السهولة ، وكانت تتمتع بذاكرة قوية جدا ، فبمجرد قراءة قصيدة من الشعر مرتين فقط ، كانت القصيدة مهما كانت طويلة ، تنطبع في ذاكرتها بحيث تتمكن من تلاوتها غيبا بعد ذلك ، دون أن ترتكب غلطة واحدة . لدرجة أن بعض زميلاتها في المدرسة كن يعتقدن أنها كانت تحفظ كل هذه القصائد سرا .

والميزة الثانية أنها حين كانت تنغمس في قراءة أحد الكتب ، كانت تنصرف بكل كيانها للتابعة القراءة في هذا الكتاب ، ولا تشعر بأي شخص أو شيء آخر يجوارها ، بل ولا تشعر أيضا بأية ضجة بجانبها مهما كانت مرتفعة . .

وفي إحدى المرات ، بينما كانت ماريـا منهمكة في

قراءة أحد الكتب ، وهي جالسة الى منضلة كبيرة
بالبيت ، كانت هناك ضجة كبيرة يصنعها اخوتها الذين
كانوا يلعبون ويصيحون بأصوات عالية . ومع ذلك فلم
ترفع ماريأ عينيها عن صفحات الكتاب لحظة واحدة ،
وكانها لا تسمع هذه الأصوات على الإطلاق .

وأرادوا ان يعاكسوها معاكسة بريئة ، فحاطوها
بكراسي البيت من كل جانب . . على يمينها وعلى
يسارها وفوق رأسها . . كل هذا وهي لا تدري شيئا
عما يصنعونه حولها بسبب شدة انهماكها في القراءة
وانصرافها تماما عن كل ما حولها . . وظل الوضع على
ذلك حتى انتهت ماريأ من القراءة وطوت الكتاب وقامت
من مقعدها . . وفجأة : يوم ! . . ارتطمت رأسها
بالكراسي ، وسقطت كل كومة الكراسي التي كانت
تحيط بها . . فانفجر الجميع ضاحكين فيما عداها . .

وحين بلغت سن السابعة عشرة . . كان أبوها
لا يكسب من مهنته ما يفي بتكاليف الأسرة على نحو طيب
معقول . . لذلك فقد اضطرت ماريأ أن تقوم باعطاء

الدروس الخصوصية لتلميذات المدارس لكي تكسب
ما تساعد به أسرتهن . .

ولم يكن هذا العمل سهلا ولا هينا . . فقد كان
عليهن في معظم الأحيان أن تذهب الى بيوت تلك
التلميذات في مختلف أنحاء وارسو . . فمخترة الكثير
من الشوارع برغم البرد الشديد أو هطول الثلج أو
المطر . . وفي بعض الأحيان كانت تتعرض للمعاملة
الجافة من جانب بعض الأمهات الثريات . . فقد كان
بعضهن يقلن لاحدى خادمتها المنزل : « قولى للآنسة
ماريا سكلودوفسكا أن تنتظر . . فابنتي ستقابلها بعد
نحو ربع ساعة ! » . . كما كانت بعض الأمهات تنسى
أن تمنحها أجرها الشهري ، وتجعلها تنتظر هذه النقود
التي تحتاجها الاسرة أشد الاحتياج .

٣ - الجامعة العائمة !

وبعد أن أنهت ماريأ دراستها المدرسية ، أرادت أن تواصل تعليمها في « الجامعة العائمة » . . وهي جامعة على شكل تنظيم سرى ، مكونة من فريق كبير من الشباب والشابات الذين كانوا يرغبون في مواصلة التعليم العالي بعد انتهاء التعليم المدرسى .

وكان هؤلاء الشباب يلتقون سرا في أماكن مختلفة وفي أوقات مختلفة للاستماع الى المحاضرات التى يلقيها عليهم الأساتذة المتخصصون . وكانت مثل هذه الاجتماعات محرمة تحريما قاطعا بأوامر من السلطات

الروسية ، بحيث إذا تم ضبط أحد هذه الاجتماعات
الدراسية ، كان يوضع الجميع في السجن . . الطلبة
والمدرسون معا .

وكان من أعظم أهداف هذه الجامعة العسائية از
الطلبة والطالبات الذين كانوا يتعلمون فيها ، كان عليها
في نفس الوقت أن يضموا اليهم مزيدا من الطلبة
والطالبات الآخرين ، ويقومون بتعليمهم ما تلقوه من
دروس ومحاضرات . وبذلك تتسع القاعدة العريضة
من الشباب الراغب في خدمة مستقبل وطنه بولندا . .

وكانت ماريا تحب أختها الكبرى « برونيا »
وتحترمها احتراما شديدا . . وتتمنى من أعماقها أن تعاود
هذه الأخت الحنون في تحقيق أملها الكبير ، وهو أن
تسافر الى باريس لتدرس الطب وتصبح دكتورة لتضفي
نفسها في خدمة الشعب البولندي .

ولكى تساعد ماريا أختها في تحقيق هذا الأمل
وضعت خطة تنسم بالذكاء . . وحتى يتم تنفيذ هـذا
الخطة بنجاح ، أجلت ماريا البدء في تحقيق طموحها

الشخصي ، وهي أن تنهب هي الأخرى الى باريس
لتكملة تعليمها العالي .

٤ - ماريّا وأختها برونيّا

وفي يوم ما ، قالت ماريّا لأختها :
- برونيّا ٠٠ لقد فكرت كثيرا في أمرك ٠٠ وفكر
أبي معي أيضا ٠٠ واعتقد أنّي وجدت لك طريقة
تستطيعين بها تحقيق أملك !
فقالت الأخت في دهشة :
- طريقة ؟ ٠٠ أية طريقة تلك ؟!
- قولي لي أولا ٠٠ اذا سافرت الى باريس ٠٠
فكم شهرا تستطيعين أن تعتمدى على ما ادخرته من
نقود ٠٠ ١٩

— لقد ادخرت قيمة أجرة السفر الى باريس
رمبلفا آخر يكفيني لفة سنة .. ولكنك تعلمين ان
دراسة الطب تستغرق خمس سنوات كاماة ..

— نعم يا برونيا .. انى أعرف ذلك .. ولهذا فاننا
نستطيع أن نتعاون معا ليساعد كل منا الشخص الآخر
بالتناوب .. اننا اذا لم نعمل معا ، فلن نستطيع ، لا
أنا ولا أنت ، أن نحقق اهدافنا وطموحاتنا .. بل وان
نستطيع حتى أن نغادر وارسو .. أما اذا اقتنعت
بخطتي فانك تستطيعين أن تسافرى الى باريس فى هذا
الخريف !

فصاحت برونيا مندهشة :

— ماريا .. هل جئبت .. ؟

فأجابت ماريا بثقة :

— الأمر بسيط يا برونيا .. ستذهبين الى باريس
.. وتبدلين دراستك .. وقبل أن تنتهى نقودك ،
سأكون أنا قد دبرت لك بعض النقود وسيقوم أبى

أيضا بتدبير مبلغ آخر .. وسنقوم بإرسال هذه النقود اليك في باريس لمواصلة دراستك .. وقد تعاهدت مع أبي على أن نرسل لك ما يمكنك من مواصلة الدراسة بين حين وآخر .. وبعد أن تنتهي من دراسة الطب وتصبحين طبيبة .. سيحل دوري .. وسأذهب أنا الى باريس لأبدا دراستي .. على أن تقومي أنت بإرسال النقود التي ستساعدني على مواصلة الدراسة !

واغرورقت عينا برونيا بالدموع عند سماعها هذا العرض الكريم من أختها .. ولكنها سألتها :
- ولكن من أين ستحصلين على هذه النقود التي ستساعديني بها ، والتي يمكنك أيضا أن تتدخسرى جزءا منها لنفسك ..

فقالت ماريا ببساطة :

- سأعمل مربية أطفال لدى إحدى العائلات .. وبذلك سأوفر تكاليف الطعام والمأوى .. وأستطيع أن احتفظ بكل أجرى .. واعتقد أن ذلك يكفي لتنفيذ خططنا ..

ـ ولكن لماذا أذهب أنا الى باريس أولا ؟ ..
يمكنك أن تذهبي أنت في البداية وساقوم أنا بمساعدتك
طبقا لهذه الخطة .. !

ـ لا يا برونيا .. انك الآن في العشرين من عمرك
.. أما أنا فمازلت في السابعة عشرة .. وأنا على يقين
من أنك عندما تصبحين طبيبة غنية .. فانك سوف
تفرقيني في الذهب .. !

٥ - مربية الأطفال

وهكذا سافرت برونيا الى باريس لتبدأ دراسة الطب فى خريف سنة ١٨٨٥ . وفى نفس الوقت تقدمت ماريا الى أحد مكاتب التوظيف والتشغيل لتبحث عن وظيفة « مربية أطفال » . وسألها إحدى موظفات المكتب عن دراستها ، والشهادات التى حصلت عليها ، واللغات التى تستطيع التحدث بها ، والوظيفة التى ترغب فى الالتحاق بها . ثم عادت ماريا بعد ذلك الى بيتها ، وأخذت تنتظر .

وبعد شهور قليلة ، حصلت ماريا على وظيفة مربية

أطفال فى أحد البيوت الكبيرة فى منطقة ريفية تبعد عن مدينة وارسو بنحو ستين ميلا (٩٦ر٥ كم) وفى هذا البيت بدأت ماريا حياة جديدة حيث بدأت عملها فى رعاية فتاة صغيرة عمرها نحو عشر سنوات .

وبالرغم من أن عملها الجديد كان يستغرق معظم جهودها ووقتها ، إلا أنها لم تنقطع عن قراءة الكتب .

وخلال إقامتها فى هذا البيت . حدثت واقعتان لا بد من الإشارة إليهما . . أما الواقعة الأولى فهي أن ماريا ، برغم كل المشاغل والواجبات الملقة على عاتقها ، إلا أنها نذرت من وقتها ساعتين كل يوم كانت تقوم فيهما بتعليم مجموعة من الأطفال الفقراء من أبناء أهالى تلك المنطقة الريفية ، مبادئ قراءة وكتابة اللغة البولندية .

وكان هؤلاء الأطفال من الصبيان والبنيات الذين يتراوح عددهم بين عشرة وثمانية عشر طفلا . . وكانوا فقراء جدا ، لا يعرفون النظافة ، ولا يتمتعون بالذكاء . ولكنهم كانوا يرغبون فعلا فى التعلم . .

وكانت ماريّا تؤدى هذا العمل الاضافى بتدريس
من المتعة والسعادة ، خصوصا عندما كان آراء وأمهات
هؤلاء الأطفال يعترفون بفضلها العظيم فى تعليم أبنائهم
اللغة البولندية . وكادت ماريّا أن تنسى تماما أن الشرطة
لو علمت بأمر مدرستها الصغيرة ، وقيامها بتعليم الأطفال
تلك اللغة الممنوعة المحرمة ، لكان مصيرها السجن
والنفى الى خارج بولندا . .

أما الواقعة الثانية ، فسوف نذكرها فيما يلى . .

٦ - قصة حب

كان الابن الأكبر للأسرة التي تعمل ماريا في بيتها ، شابا يتلقى تعليمه في وارسو . وفي الاجازة المدرسية ، عاد الى بيت الأسرة ، فوجد في البيت شابة صغيرة جميلة تعمل مربية لأخته . .

رآها أجمل وأفضل وأذكى من أية فتاة أخرى رآها من قبل . . فهي تستطيع أن ترقص في رشاقة مجموعة من الرقصات الشعبية البولندية . . وتستطيع أن تلعب لعبات ذكية عديدة . . وتستطيع أن تقول الشعر بسهولة وعذوبة . . وتتمتع بذاوق رفيع وأخلاق عالية .

وقع الشابان فى الحب . . وأراد الابن الأكبر أن يتزوج حبه بالزواج من هذه الفتاة العظيمة . . وذهب الى والديه ليستأذنهما فى هذا الزواج . .

انفجر الأب غاضبا . أما الأم فقد أغمى عليها ! . .

كيف يتزوج ابنهما العزيز من مثل هذه الفتاة التى لا تملك شيئا على الإطلاق . . فتاة فقيرة اضطرت أن تعمل كمربية أطفال فى بيتهم بسبب فقرها وحاجتها الى المال . .

ولم يهتم الوالدان إطلاقا بأن الفتاة جميلة أو ذكية أو من أسرة طيبة ، كما لم يهتموا بأن الفتاة تتمتع فعلا بأخلاق حميدة . . كان اهتمامهما منصبا على استئحانة أن يتزوج ابنهما العزيز من فتاة تعمل كمربية أطفال .

وكانت شخصية الابن ضعيفة فرفض الى قرار والديه بعدم الموافقة على زواجه . . واضطر الى أن يصرف النظر عن حبه وإلى تغيير رأيه . . وكانت هذه الصدمة جرحا عميقا لمشاعرهما .

وفي تلك الفترة عرفت ماريا طعسم الحزن ..
وازدادت أحزانها أكثر حين علمت أن أخاها الأصغر قد
غادر وارسو دون أن يكمل تعليمه المدرسي .. وفي
أحد الخطابات التي أرسلتها إلى أخيها لتستحثه على
العودة إلى وارسو ليتم تعليمه ، نقرأ هذه السطور .

« لقد فقدت الأمل في أن أكون شيئاً في حياتي
المستقبلية .. وكل أمل منحصر الآن فيك أنت وفي أختي
برونيا .. وسأبذل كل جهدي لكي أساعدكما في بناء
المستقبل .. » .

وواصلت عملها كمرربة أطفال لتتمكن من إرسال
نصف أجرها الشهري إلى أختها التي تتعلم في باريس
.. ولتساعد أيضاً أخاها لكي يواصل تعليمه .

٧ - العودة الى وارسو

وعملت ماريا كمربية أطفال لمدة ثلاث سنوات متوالية . وكانت سنوات طويلة بالنسبة لها ، لأنها كانت تشعر وكأنها فقدت الامل في مستقبلها . ولكن بعض الاحداث الصغيرة التي حدثت في كل من وارسو وباريس غيرت مجرى حياتها .

ترك ابوها مهنة التدريس التي كانت تدر عليه دخلا متواضعا ، والتحق بوظيفة أخرى تدر عليه دخلا أكبر . وأصبح بالتالى قادرا على ارسال مبلغ أكبر لابنته التي تتعلم الطب في باريس ، والتي أوشكت

الآن على الانتهاء من دراستها التي استمرت خمس سنوات .

وغادرت ماريا المنطقة الريفية التي كانت تعمل فيها كمربية أطفال، وعادت لتعيش مع أبيها في وارسو .
والتحقت على الفور « بالجامعة العائنة » وبدأت دراستها « السرية » في هذه الجامعة لعلوم الطبيعة .

وحين كانت تجرى التجارب العلمية في تلك الدراسة السرية ، شعرت ماريا بأن المستقبل قد بدأ يتفتح أمامها . . . وأنها عثرت أخيرا على الغيظ الذي يؤدي الى بداية طريقها في بحار العلم الواسعة .

وفي يوم ما استلمت خطابا مرسلا من اختها برونيا . . . وكان الخطاب يحمل أخبارا سعيدة مفرحة .
لقد تزوجت الأخت برونيا ، وأصبحت لا تحتاج أية نقود من ماريا أو من أبيها . . . وبالإضافة الى ذلك فإن برونيا تدعوها للقدوم الى باريس لكي تبدأ دراستها ، وأن تعيش معها ومع زوجها حتى تنتهى برونيسا من امتحاناتها النهائية وتحصل على شهادة الطب . . .

احتارت ماريًا فيما تفعله إذا هذه الدعوة وهذه
الظروف الجديدة .. ولكنها في النهاية أحصت ما
ادخرته من نقود .. وأعطاهما والدها نقودًا إضافية .
وبدأت تستعد للذهاب إلى حيث سيتحدد مستقبلها ..

٨ - الرحيل الى باريس

وفي خريف عام ١٨٩١ ، بلغت ماريا سن الرابعة والعشرين . . . وعلى رصيف القطار بمحطة السكك الحديدية الرئيسية في وارسو . . . وقفت ماريا لتقول وداعا لوالدها : « لن أتغيب عنك كثيرا . . . مجرد عامين أو ثلاثة أعوام حتى أنهى من دراستي وأجتاز امتحاناتي بنجاح . . . وعندئذ سأعود اليك فورا . . . ولن تفترق الأسرة بعد ذلك أبدا . . . » .

وقال الأب والدموع تشرق في عينيه :
- نعم يا صغيرتي العزيزة . . . عودي فورا بعد

الانتهاء من دراستك .. وعديك أن تعمل بكل جهتك ..
وأتمنى لك حظا سعيدا !

وركبت ماريا عربة صغيرة صندوقية الشكل ملحقة
بآخر عربات القطار ، لأنها لم تدفع الا أجرا قليلا حتى
تجد مقعدا غير مريح في تلك العربة .

وانطلق بها القطار الى باريس عبر ألمانيا ..
باريس حيث توجد أختها بروني .. وحيث ستحدد
أهداف حياتها .. ولم تكن تعلم حين كان القطار
منطلقا في هذا الطريق الطويل ، أنها كانت في الوقت
نفسه تعبر خارجة من فلول الظلام الى الاضواء الساطعة
.. وأنها بدأت الآن أولى خطواتها في أن تصبح من
النساء الشهيرات في العالم !

وبعد أسابيع قليلة من وصولها الى باريس
أصبحت ماريا سكلودوفسكا .. تلك الفتاة البولندية
التي ترتدى ملابس فقيرة .. طالبة « علوم » في أشهر
جامعة فرنسية .. وقيدتها الجامعة باسم « ماري
سكلودوفسكا » .

٩ - بيتها فى باريس

لم تستطع « ماري » أن تواصل الحياة فى بيت
اختها برونيا وزوجها . . فقد كان البيت يقع فى منطقة
بعيدة عن الجامعة . . وكانت تضيق وقتا طويلا فى
الذهاب والاياب ، وهى التى كانت لا تريد أن تقضى
دقيقة واحدة بعيدة عن كتبها ودراساتها .

ومكثا استأجرت حجرة صغيرة فى أعلى بيت
منواضع . . ولم يكن بتلك الحجرة الا نافذة صغيرة
يسقفها المائل يتسلل منها ضوء النهار . . ولم يكن فيها
من الأثاث الا سرير صغير ، ومقعد واحد ، ومنضدة ،

وحوض صغير للغسيل والاستحمام ، وموقد صغير للطبخ ، ومصباح صغير يضاء بالزيت .

ولم تكن تنفق من النقود الا فى تسديد ايجار تلك الحجرة وشراء اقل قدر ممكن من الطعام ، وشراء كل ما تحتاجه من الكتب ودفع مصاريف الدراسة . وظلت فترة طويلة لا ترتدى الا الملابس المتواضعة التى جاءت بها من بولندا .

وانصرفت ماري بكل كيانها الى العلم والدراسة ، لدرجة كانت تبدو معها وكأنها فقدت احساسها بالجوع او احساسها ببرد الشتاء !

وبالرغم من برودة ليالى الشتاء القارسه ، كانت ماري لا تستطيع شراء بعض الفحم لتدفئة حجرتها . . . بل وكانت تنسى فى احيان كثيرة أن توقد الموقد الصغير لعله يوفر لها بعض الدفء . . . وذلك لشدة انغماسها فى الدراسة والمذاكرة ، ورغبة منها فى علم تضيق ولو دقيقة واحدة بعيدة عن كتبها .

وكانت تواصل المذاكرة دون أن تشعر بأن أصابعها

قد أوشكت على التجرد . وأن كنفها ترعشان من شدة
البرد . . ربما كان بعض الحساء الساحر يمنحها بعضا
من القوة والقدرة على التحمل ، ولكنها لا تعرف كيف
تصنع الحساء . . بن وحنى ان كانت نعسرف كيف
تصنعه فانه سيكلفها تمودا مى فى أشد الحاجة إليها ،
فضلا عن أن اعداد الحساء سيتطلب وقتا تحتاجه
لمواصلة الدراسة والمذاكرة .

وكانت تقضى أياما وأياما لا تتناول فيها من الطعام
شيئا سوى قطع من الخبز والزبد وبعض أكواب الشاي
.. وحين كانت تريد أن تقيم لنفسها وليمة ، كانت
تشتري بيضتين ، أو بعض الحلوى أو الفاكهة . .

وبطبيعة الحال ، فان هذه المفادير القليلة البسيطة
من الطعام ، لم تكن تكفيها أو تساعد على مواصلة
جهودها المضيئة التى كانت تبذلها فى الدراسة . . لذلك
فقد أصيبت بالضعف والهزال . . وفى بعض الأحيان
كانت تتماسك بصعوبة حتى تصل الى سريرها الصغير
وترتمى مغطيا عليها من شدة التعب .

١٠ - الجوع

وفي يوم ما ، سقطت ماري مغشيا عليها أمام إحدى صديقاتها التي أسرعت بإبلاغ زوج اختها الذي كان يعمل طبيباً . . . وانطلق الطبيب إلى ماري بأقصى سرعة لينقذها مما هي فيه . . . وصعد درجات السلالم عدوا حتى وصل إلى تلك الغرفة العلوية الصغيرة التي ترقع فيها ماري وهي تعاني حالة من الإعياء بحيث أصبحت لا تقدر على الحركة .

نظر الطبيب حوله إلى محتويات الغرفة من الأثاث الفقير . . . ولاحظ عدم وجود أي طعام أو شيء يؤكل ،

عدا باكو صغير من الشاي نصف ممتلئ .. فسألها
وهو لا يكاد يصدق ما يرى :

ـ ماذا أكلت اليوم .. ؟

فقالت بصوت ضعيف :

ـ لا أدري .. لقد أكلت شيئا منذ وقت
مضى .. !

ـ ما هو بالضبط .. ماذا أكلت بالضبط

ـ إحدى نمار الفاكهة .. و .. وأشياء أخرى !
وعاود زوج أختها الطبيب سؤالها مرة أخرى
حتى عرف منها أنها لم تتناول من الطعام شيئا منذ
مساء اليوم السابق الا ثمرة فاكهة وقليلًا من الخضراوات
غير المطبوخة .. وأنها ظلت تواصل العمل والذاكرة
حتى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، ولم تنم سوى
أربع ساعات فقط ، انطلقت على أثرها الى الجامعة
لسماع محاضراتها وأداء دروسها العملية .. وعندما
عادت الى حجرتها لم تجد فيها شيئا يؤكل .. ومع ذلك

فقد بدأت فى مذاكرة دروسها الى أن سقطت مغشياً عليها .

وانتقلت ماري الى بيت أختها برونيا لتعيش معها بضعة أيام قليلة حتى تستعيد صحتها . . وتناولت هناك من الطعام ما يقيم أودها وما يحتاجه جسمها الهزيل من تغذية .

ولكنها كانت مع ذلك حزينة وغير سعيدة لانقطاعها عن المذاكرة والذهاب الى الجامعة . . لذلك أصرت على العودة الى حجرتها الصغيرة القريبة من الجامعة . وسرعان ما انغمست فى الدراسة مرة أخرى .

وبالرغم من كل هذا العناء الذى كانت تواجهه ماري فى حياتها فى تلك الفترة ، الا أنها كانت تشعر بالسعادة . . بل وكانت تقول ان فى امكان كل انسان أن يشعر بالسعادة حتى ولو لم يكن معه ما يحتاجه من نقود أو ما يكفيه من طعام . .

كانت ترى أن السعادة كامنة فى الانغماس فى

العمل .. وحين كانت تواصل عملها في حجرتها المتواضعة الصغيرة طوال الليل .. كانت تنسى كل شيء الا العلم ، والعلم وحده .. وفي بعض الأحيان كانت تتصور نفسها زميلة لكبار العلماء الذين عاشسوا في الماضي .. والذين كانت تعرف عنهم أنهم كانوا مثلها .. منصرفين الى العلم بكل كيانهم .. وانهم كانوا ايضا متفصلين عما كان يدور حولهم من شئون حياتهم الشخصية .. وأن اهتمامهم كله كان منحصر في العلم والبحث والمعرفة .

١١ - البرد

وكانت ليسانى باريس قارسة البرودة في فصل الشتاء . . وكانت الحجرة العلوية التي تدير فيها باردة جدا لدرجة تمنعها من النوم . . وكيف كان يمكنها أن تنام وكل شيء حولها بارد الى درجة الشجيرة . . وعندما كانت تعجز عن شراء بعض الفحم، لتدفئة، كانت تراسى، نفسها بأنها فتاة بولندية . . والشتاء في وطنها بولندا أشد قسوة من شتاء باريس ، ولذلك فمن الواجب عليها أن تتحمل . . ولكن البرد كان أشد قسوة وأقوى من ارادتها

الحديدية ٠٠ ومع ذلك فقد حاولت أن تواجهه بكل ما يخطر على بالها من حيل ٠٠ فكانت عندما تتأهب للنوم ، ترتدى أكبر عدد ممكن من ثيابها ، ونسلى نفسها بكل ما تبقى لديها من ثياب أخرى .

ومع ذلك فقد كان البرد يشتد مع مرور كل لحظة ٠٠ فماذا فعلت حتى تواجه هذا الموقف ؟ ٠٠ لقد مدت يدها من تحت الأغشية ، وسحبت المقعد الوحيد الموجود في حجرتها ، ووضعت فوق الأغشية ، لعل ثقل المقعد فوق جسدها المرتعش ، يتيح لها بعض الدفء !

وكانت ماري تظل راقدة بهذا الوضع دون أية حركة ، خسوها من اهتزاز المقعد أو سقوطه ، فتفقد الدفء وتعرض الى البرد من جديد !

وهكذا تظل مستيقظة من شدة البرد الذي يمنعها من الاستغراق في النوم ٠٠ وتظل عينها مفتوحة وهي ترى على ضوء المصباح الخافت ، زجاجة الماء التي تشرب منها ، وقد تجمد الماء فيها وأصبح ثلجا !

١٢ - زواجها

كانت تواصل دراستها ليلا ونهارا .. حتى تتمكن من اعادة اللغة الفرنسية اعادة تامة ، كتابة وقراءة .. وحتى يمكنها بالتالى من مواصلة دراستها للعلوم حيث تلقى المحاضرات النظرية والعملية باللغة الفرنسية ، وحيث الكتب العلمية مكتوبة أيضا بتلك اللغة .. كما كانت تحرص دائما على اجراء تجاربها العلمية بمعامل الجامعة .

وكانت متعنتها الوحيدة ، حين كانت تتركب احدى المراجعات وتتجه بها صوب الريف ، حيث الخضرة

رجال عظام .. ونساء عظيمات ٢٢٥

والزهور والأشجار والفضاء الرحيب . وعندئذ كانت
تحس أنها أصبحت فى غنى عن أى شىء آخر . وبالرغم
من شبابها فقد كانت لا تشعر بأية رغبة فى الحب . .
خصوصا بعد تجربتها الأولى . . وكانت تجربة مريرة
كما رأينا .

لذلك فقد اندمشت «أرى كثيرا حين لاحظت أنها
بدأت تهتم كثيرا بزميل لها يدعى « بير كورى »
. وكان عالما فرنسيا يقضى معظم أوقاتة فى إجراء
التجارب العلمية بمعامل الجامعة .

وربط بينهما العمل فى المعامل برباط وثيق . .
بدأ باحترام كل منهما للآخر ، ثم اعجابه ، ثم صداقته ،
ثم الوقوع فى حبه عميق جعلهما يشعران بأن كلا منهما
لا يستطيع أن يستغنى عن الآخر . .

رقى عام ١٨٩٥ تزوجا . . وبعد الزواج مباشرة
تركا باريس وذهبا الى الريف ليقتضيا هناك أياما قليلة
. . وكانا سعيدين غاية السعادة ، خصوصا حين كانا
يتجولان بين الدروب الضيقة التى تفصل بين الحقول

.. وحين كانا يتجولان بين أشجار الغابة .. وكان الحديث بينهما متصلا لساعات وساعات طويلة .. يتناقشان في العلوم .. وفي التجارب العملية .. وفي الكيفية الصحيحة التي تمكنهما من خسة العلم بكل طريقة ممكنة .. وكانا يحلمان بأن يكون لديهما معمل خاص يجران فيه تجاربهما ..

وسرعان ما عادا الى باريس مرة أخرى ليواصلوا العمل معا ..

١٣ - البيت الجديد

ولكن الزواج القى على عاتقها الكثير من الواجبات والمسئوليات . . . لقد سكنت الآن فى شقة كبيرة مكونة من ثلاث حجرات ، بأعلى أحسد البيوت وتطل على حديقة . . .

ولم تكن الشقة مجهزة بأثاث أكثر من حاجتهما الأساسية . . . وإذا جازف أحد الأصدقاء بزيارتها ، فقد كان عليه أولاً أن يتحمل تعب الصعود فوق تلك الدرجات العديدة . . . ولن يجد لدهما إلا رفوفاً تراصت فيها الكتب والمراجع ، ومنضدة ومقعدين اثنين فقط .

يجلس عليهما الزوجان المنصرفان كلية الى الدراسة
والذاكرة .

ولأن أصبح على مدام كورى أن تعد وجبات
الطعام . . . وحين كانت تعيش وحدها ، لم تكن تهتم
بهذا الموضوع . . . ولكنها الآن أصبحت ربة بيت وعليها
اعداد الطعام لنفسها ولزوجها . . . وهكذا تعلمت كيف
تصنع الحساء . . . وكيف تطبخ بعض الخضراوات التى
تستيقظ مبكرة حتى تذهب لتشتريها من السوق وكان
يجب عليها أن تطبخها بطريقة سهلة لا تضيع كثيرا
من وقتها . . .

وكان الزوجان يقضيان فى الممسك نحو ثمانى
ساعات يوميا ، ومع ذلك فقد كانا يشعران أن هذا
الوقت غير كاف لمواصلة اجراء تجاربهما . . . وحين كانا
يعودان الى البيت كانا يجلسان الى طرفى المنضدة ،
ويبينهما مصباح يعمل بالزيت ويشع نورا خافتا ولكنه
يكفيهما لمواصلة القراءة . . . وحتى الساعة الثانية أو
الثالثة بعد منتصف الليل ، لا يسمع فى حجرتهم أى
صوت سوى صرير القلم وهو يكتب على الورق ، أو

حليف صفحات الكتب حين يقلب أحد الزوجين صفحات كتابه بعد أن يقرأها لينتقل إلى صفحات أخرى .

وبعد نحو سنتين رزق الزوجان بأول أطفالهما . . وكانت بنتا سميها « إيرين » . . وقد حصلت هذه البنت فيما بعد على جائزة نوبل . . !

وازدادت واجبات ومسئوليات مدام كوري بعد أن أصبحت أما . . ولكنها مع ذلك واصلت دراساتها وأبحاثها العلمية بروح متفائلة وسعيية .

١٤ - فى المعمل

فى البيت ، كانت الأم ماري كورى تقوم بكافة واجباتها نحو ابنتها الوليدة ونحو زوجها ٠٠ وفى المعمل ، كانت عالمة ماري كورى تواصل تجاربها العلمية بمنتهى النشاط ، حيث أدركت أنها أصبحت على مشارف اكتشاف علمى جديد لم يسبقها إليه أحد من علماء العالم .

ومنذ سنوات قليلة سابقة على هذا التاريخ كان أحد العلماء قد اكتشف مادة جديدة اسمها « اليورانيوم » وقال ان هذه المادة يصدر منها نوع من

الاشعاع (الذى سميته مدام كورى فيما بعد باسم
النشاط الاشعاعى) .

ولكن كيف يصدر النشاط الاشعاعى من تلك
المادة . وما هو شكله . وما هي آثاره . ؟

هذا هو السر الذى كانت مدام كورى تسعى
لاكتشافه . وكانت من أجله تجرى التجارب تلو
التجارب . تنجح فى مرة وتفشل فى مرات . ثم
تنجح فى إحدى المرات ، ولكن النجاح يزيده السر
انغلاقا ، ويتطلبه اجراء عشرات من التجارب العلمية
الأخرى .

وهكذا ظلت مدام كورى تواصل أبحاثها وهي
تشعر فى قرارة نفسها أنها على وشك أن تكتشف
هذا النشاط الاشعاعى المجهول .

وكانت ماري كورى قد كتبت قبل ذلك بمدة طويلة
تقول : « ان الحياة ليست سهلة . ويجب أن نعمل
بكل حمة ، وأن نشق فى قدراتنا وفي أنفسنا ثقة كاملة
. ويجب أن نؤمن بأن كل واحد منا قادر على اجادة

العمل الى أقصى حد .. وعندما نكتشف سر هذا الشيء
الذى نبحث عنه ، نكون قد نجحنا في اداء عمل
نافع ، ..

وهذا الشيء الذى كانت تبحث عنه مدام كورى ،
كان شيئاً جديداً بالفعل .. أدى الى أن يفتح أمام
العلم آفاقاً جديدة واسعة ..

١٥ - الزوجان يعملان معا

فى تلك الفترة ترك الزوج جميع أبحاثه وتجارب العملية ، وانضم الى زوجته ليعاوناها فى البحث عن ذلك الاشعاع المجهول . . . ومنذ ذلك الوقت كانا يكتبان فى تقاريرهما العلمية : « لقد عملنا كذا » أو « قام أحدهما بعمل كذا »

وفى عام ١٨٩٨ أعلننا أن هناك شيئا فى الطبيعة يسمى « النشاط الاشعاعى » . . . يصدر عن مادة مازالت مجهولة أطلقا عليها اسم « راديوم » .

ولكن هذا الكشف الجديد الذى أعلن عنه

الزوجان كان على عكس المعلومات التي كانت سائدة بين علماء تلك الفترة . لذلك أنصت العلماء جيدا الى ما أعلنه الزوجان ، ولكنهم لم يصدقوا شيئا مما قالاه . .

وقال بعض العلماء المنصفين : « اذا كنتم تريدان اقناعنا حقا بما تقولاه وأعلنتماه . . فيجب عليكما أن تريانا بعض هذا الراديوم الذي تقولان بوجوده ! » .

وهكذا أصبح على الزوجين الآن أن يقضيا سنوات طويلة في البحث العلمى حتى يتمكنوا من تحضير هذا الراديوم ، ويشبها صحة نظريتهما الجديدة .

وكان هناك مبنى صغير يقع خلف المدرسة التي كان يعمل بها الزوج . . وكانت جدران هذا المبنى وستفه مصنوعة من الخشب وبعض ألواح الزجاج . ولا يوجد به من الأثاث سوى بعض المناضد القديمة ، وسبورة ، وموقد قديم . . كما أن المبنى نفسه لم يكن أفضل من كوخ قديم لا يرغب فيه أحد ، ولا يعرف أحد كيف يمكن الاستفادة منه . .

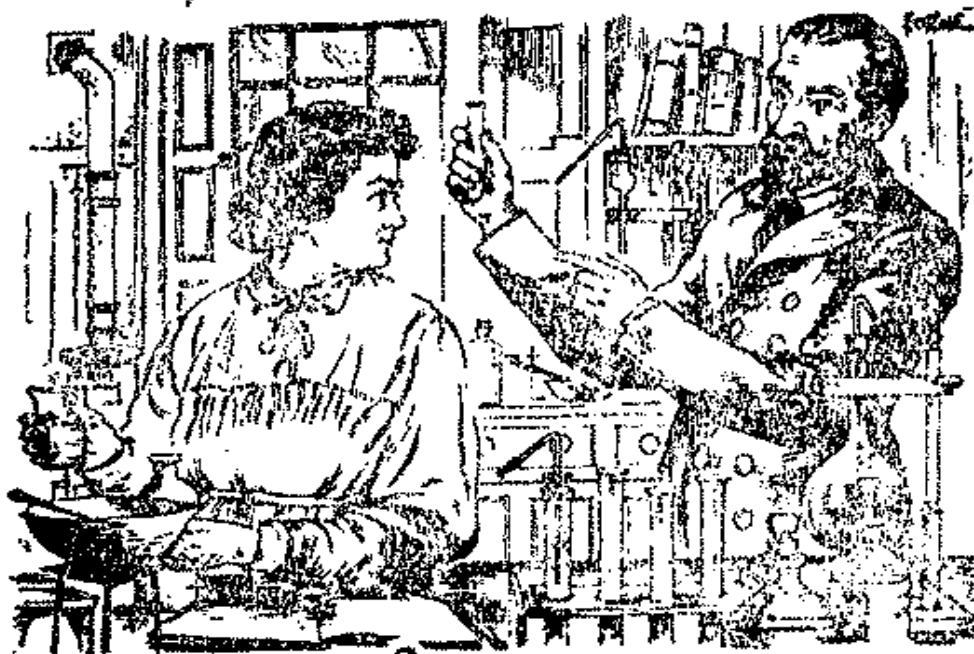
واتخذ الزوجان من هذا المبنى معملًا يجريان فيه تجاربهما العلمية لمدة أربع سنوات طويلة مضيئة ، لم يضيما فيها لحظة واحدة .. كانا يعملان طوال النهار وجزءا كبيرا من الليل .. يستعملان الميزان الدقيق في وزن بعض المواد .. ويقومان بإذابة بعض المواد .. ثم يجريان الكثير من الحسابات والمعادلات .. ويعيدان هذه الكرة مرات ومرات ومرات ..

كانا يؤمنان بوجود الراديوم .. ولكن أين .. وكيف يحصلان عليه .. ١٩

هل سيستطيعان في يوم ما الوصول الى هذا السر العظيم .. ١٩

هذا الأمل كان يدفعهما الى تحمل مواصلة العمل الشاق في ذلك المعمل .. الحار صيفا البارد شتاء .. والذي تتساقط من سقفه المياه كلما أمطرت السماء ..

وبالرغم من هذا العمل الشاق الذي استمر لأربع سنوات متوالية ، كان الزوجان يعتبران هذه السنوات من أسعد فترات حياتهما ..



• ماری وپییر کوری فی معملهما •

وفلا يعملان يوما وراء يوم .. وأسبوعا وراء
أسبوع .. وشهرا بعد شهر .. وعاما بعد عام ..
حتى أصبحا قريبين تماما من ذلك الاكتشاف العلمي
العظيم .

١٦ - النجاح

وفي مساء أحد الأيام في عام ١٩٠٢ ، كان الزوجان قد غادرا معملهما منذ نحو ساعتين ، وتوجها الى البيت .. وبينما كانا جالسين .. نهضت ماري كوري من مقعدها وقالت لزوجها :

ـ فلنذهب الآن الى المعمل .. ولو للحظة واحدة .. !

وارتديا ملابس الخروج .. وغادرا البيت الساعة التاسعة مساء .. واتجها عبر الشوارع الى حيث يوجد

المعمل .. وأولج الزوج المفتاح في قفل الباب فانفتح ..
.. وهنا قالت له زوجته :

— لا تضيء المصباح ! .. أنظر ماذا ترى .. !!

كان هناك ضوء أزرق خافت يشع من بعض
أمايبب الاختبار الموضوعة على بعض المناضد .. لقد
وصل الزوجان أخيرا الى السر الذي كانا يبحثان عنه
كن هذه السنوات الطويلة .. الراد يوم !!

١٧ - شهرة لايرغبان فيها

بمجرد اعلان نبأ اكتشاف الراد يوم ٠٠ ذاعت شهرة الزوجين باعتبارهما من كبار العلماء الذين أخطوا اللثام عن أسرار الطبيعة ٠٠

ولكن الزوجين لم يتمتعا بهذه الشهرة لأنهما لا يرغبان فيها. ولا يسعيان الى تحقيق الأمجاد الشخصية ٠٠ كانا يريدان أن يواصلتا سعيهما الى مزيد من الاكتشافات الجديدة ٠٠ وكانا ينمنيان أن تهيب لهما أية جهة مصلا مناسباً مجهزة بجميع الأدوات والمراد والمستلزمات العلمية التي تساعد على اجراء المزيد من

التجارب .. وأن يتركهما الناس ليواصلوا حياتهما
العلمية في سلام وهدوء ..
فهل تحقق لهما هذا الأمل .. ١٩

في كل يوم تقريبا ، كانا يتلقيان دعوات الى
حضور المآدب الكبيرة .. والاجتماعات الهامة .. وطلبت
منهما الصحافة أن يكتبتا مقالات لنشرها في الجرائد
والمجلات .. كما طلبت منهما الكثير من الجمعيات
والهيئات أن يلقيا الأحاديث والمحاضرات في اجتماعات
عامة .. بل وجاء الصحفيون الى بيتهما ليكتبوا عنهما
الأحاديث وليأخذوا لهما الصور الفوتوجرافية .. بل
وليصوروا أيضا ابنتهما الصغيرة وكل شيء آخر بالبيت
حتى القطعة الأليفة .. وليعرفوا رأيهما في أشياء
عديدة مختلفة ..

وكان الزوجان يعتبران ان تلك الشهرة العريضة
نوع من المضايقات وتجربة مؤلة يودان أن يهربا منها .
وكانت مدام كورى لا تحب ولا ترغب في ان
تحيط نفسها بهالة من الضوء .. وظلت لسنوات طويلة

حين كانت تسير فى الشوارع مثلاً ويسألها بعض
الناس :

— ألسيت أنت مدام كورى ؟ ١٩

كانت تعجب هؤلاء بصوت يارد ممزوج بالخوف :
— لا .. بكل أسف .. !!

١٨ - المعامل والمجوهرات

وتبين لنا الحادثة الطريفة التالية حقيقة الاهتمامات التي كانت تدور دائما في ذهنى هذين الزوجين . . . فبعد نحو عام من اعلان اكتشافهما العلمى الكبير دعيا الى الحضور الى انجلتوا للتباحث مع اكبر وأشهر العلماء الانجليز .

وقام ميسيو بيير كورى بالقاء محاضرة علمية ضافية أمام حشد كبير من هؤلاء العلماء . . . وبعد انتهاء المحاضرة ، أقيمت للزوجين مأدبة ضخمة حضرها العلماء وكبار أعضاء الأوساط العلمية ومعهم زوجاتهم .

وكانت جميع السيدات اللاتي حضرن هذا الحفل المتألق يرتدين أفخر الثياب . ويتحلين بأغلى وأثمن أنواع الحلى والمجوهرات . . . وكانت ماري كورى تنظر الى تلك المجوهرات الثمينة باعجاب شديد . . . ولكن الذى أنار دهشتها أكثر حين رأت زوجها - الذى لا يهتم إطلاقا بالحلى ولا المجوهرات - يتطلع بدوره الى تلك المجوهرات باعجاب شديد مماثل لاعجابها . . . !

وحين انفرد الزوجان ببعضهما بعد انتهاء الحفل، قالت مدام كورى لزوجها :

- ببيير . . . لم أكن أتصور أن توجد مثل هذه المجوهرات فى العالم . . . يالها من مجوهرات رائعة . . . ! فضحك الزوج وقال :

- نصورى . . . كنت أنظر فعلا الى كل هذه المجوهرات باعجاب شديد . . . ثم تحول هذا الاعجاب الى فكرة طريفة شغلت تفكيرى طوال الحفل . . . أخذت أحسب الثمن التقديرى لكل هذه الحلى والمجوهرات قطعة قطعة . . . ثم بدأت أجمع اجمالى أثمان هذه القطع

كلها وأتخيل في الوقت نفسه كم من المعامل العلهية
يمكن اقامتها لخدمة العلم بضمن هذه المجوهرات !!

١٩ - جائزة نوبل

وفي نفس العام ، منح الزوجان جائزة نوبل
للمعلوم الطبيعية . وكنهما لم يستطيعا السفر الى
السويد لاستلام الجائزة بسبب انهماكهما الشديد في
القضاء المحاضرات وفي اجراء التجارب العلمية
بمعملهما . . . وعندما ارسلت اليهما قيمة الجائزة ،
كانت مبلغا كبيرا من المال ، ساعدهما في التفرغ تماما
للبحث العلمي .

ثم حدث بعد ذلك اكتشاف مثير آخر ، فقد تبين
ان الراديوم يصلح علاجاً لمرض من أخطر الأمراض التي

تصيب البشر ، وهو مرض السرطان .. ولكن المشكلة هي أن انتاج الراديوم يحتاج الى أموال طائلة .. بل ان فكرة انتاج الراديوم نفسها تستحق مكافأة كبيرة يجب أن يحصل عليها الزوجان .

وفى صباح أحد الأيام ، قال بيير كورى لزوجته وهو يمسك فى يده خطاباً وصله من أمريكا :

- دعينا نتحدث قليلا عن قيمة الراديوم الذى اكتشفناه .. فمن المؤكد أن العالم كله سيحتاج اليه .. وقد وصلنا هذا الخطاب من أمريكا يدعوننا فيه للذهاب الى هناك لمعاونتهم فى انتاج الراديوم بكميات كبيرة ، ويعلموننا بمبلغ كبير من المال .. وعلينا الآن أن نقرر ما سوف نفعله .. هل نحفظ بسر انتاج الراديوم لأنفسنا ولا نبيعه الا مقابل ثروة كبيرة طائلة .. أو نعلن هذا السر على الملأ بلا مقابل كما يفعل العلماء الذين وهبوا أنفسهم للعلم .. وأنت تعرفين بلا شك أننا نعيش حياة بسيطة متواضعة .. وأصبحت لدينا ابنة لها كثير من الاحتياجات .. وربما سيكون لدينا

أطفال آخرون في المستقبل ٠٠ ان المبالغ الكبيرة التي
يمكننا الحصول عليها ستوفر لنا حياة فيسا قدر كبير
من الراحة ، كما ستساعدنا أيضا في انشاء معمل
علمي كبير ومجهز بكل ما نحتاجه من مواد ومعدات
وأجهزة ٠٠ !

٢٠ - القراء الحاسم

لم تفكر مدام كوردي كثيرا في هذا الموضوع ، بل كانت اجابتها جاهزة . فما أن انتهى زوجها من كلامه حتى قالت في حزم :

- ان واجب العلماء أن يعطوا اكتشافاتهم للعالم . حتى رلو كانت أسرار هذه الاكتشافات تساوي أمرا طائفة . . . اننا لا يمكن أن نبيع أو نتاجر في سر اكتشافنا . . . ان ذلك سيكون ضد الروح العلمية !

وحل صمت قصير .. ثم ردد بيير كورى كلام
زوجته بهدوء وصدق :

- حقا .. ان ذلك سيكون ضد الروح العلمية !

وبعد نحو ربع ساعة من هذا الحديث وما انتهى
به من قرار حاسم .. ركب الزوجان دراجتيهما ،
واتجها الى منطقة ريفية بخارج المدينة ، وعادا في آخر
النهار متعبين ، ومعهما مجموعة كبيرة منعددة الألوان
من الزهور وأوراق الشجر

٢١ - الشهرة والأطفال

كانت الشهرة نسبب للزوجين كثيرا من المضايقات . لأنهما كانا قد وهبا حياتهما للعلم ، وأصبحا لا يهتمان بأية شهرة أو تكريم لشخصيتهما .

وفي إحدى المرات سألها أحد الصحفيين عن نفسها وأفكارها ومعتقداتها . فاجابته اجابة صريحة مختصرة :

... ان العلماء يهتمون بالأشياء والشئون العلمية ولا يهتمون بأشخاصهم !

وفي مرة أخرى حين كانت مدام كورى مدعوة

الى حفل كبير ، جاءها أحد الأصدقاء وسألها عما اذا كانت تحب مقابلة ملك اليونان الذي كان حاضرا في نفس الحفل .. فأجابت بنفس البساطة التي كانت تتميز بها اجاباتها :

— انى لا أرى أية قيمة لذلك ،

تم استطردت حين رأت أنها قد جرححت مشاعر صديقها بتلك الاجابة :

— ولكن .. ولكنى على استعداد أن أفعل ذلك لأجل خاطرك .. !

ومرت عدة شهور واصل فيها الزوجان احابهما العلمية في معملهما .. وأصبحت حياتهما .. هالة الى حد ما وخالية من المشاكل .. ثم زقا بطفله نانية سميها « ايف » .. واضطرت مدام كورى أن تقدم اوقاتا بين ممارسة وظيفة الأم وربة البيت ، وممارسة واجباتها كعالمة كبيرة من أشهر العلماء ..

وطلبت الجامعة الفرنسية من مسيو بيير كورى

أن يقوم بتدريس علوم الطبيعة والقاء المحاضرات *
ولكنه رفض تلك الوظيفة بسبب عدم وجود معمل
للتجارب العلمية في تلك الجامعة .. وصمم -لى الرئيس
الا اذا قامت الحكومة ببناء هذا المعمل العلمى ونجهيزه
بكافة الامتياجات *

وعندما اتسع نطاق الأبحاث العلمية فى عملها
الخاص ، استعان الزوجان بثلاثة من المساعدين المساونة
فى أعمال المعمل ، يعملون تحت اشراف مباشر من
مدام كورى *

وقى هذا الجو العلمى الحافل بالتجارب والأبحاث
الدقيقة .. كان الزوجان ماري وبيير كورى يواصلان
حياتهما السعيدة بكل كد وكل هدوء ..

٢٢ - موت بيير كورى

وفى يوم ١٩ ابريل ١٩٠٦ ، بينما بيير كورى يسير فى أحد شوارع باريس المزدحمة بالناس ، انزلت قدماه فى مياه المطر فسقط على الأرض ، وداسمت شلبيه عجلات احدى العربات الثقيلة المسرعة ، فمات على الفور . . . وهكذا انتهت حياة هذا العالم الكبير . . .

كانت صدمة قاسية على زوجته وشريكته فى العلم والحياة . . . وحزنت لئى سماعها النبأ حزنا هائلا حتى ظن بعض اصدقاء الأسرة أنها لن تفيق من هذا الحزن اطلاقا .

ولكن الحياة مع ذلك يجب أن تستمر ، خصوصا
وأنها قد أصبحت الآن مسئولة وحدها عن رعاية وتربية
الطفلتين الصغيرتين ، كما تضاعفت أيضا مسئوليتها
العلمية حيث أصبحت مسئولة عن مواصلة تجارب
زوجها وتكملة أبحاثه بالإضافة الى مسئوليتها عن
مواصلة تجاربها وأبحاثها الشخصية .

وفي خريف نفس العام ، صدر قرار من الجامعة
التي كان يعمل فيها زوجها الراحل . . وكان القرار
يتضمن سطورا قليلة ولكنها نبيلة المرمى وعصية
المغزى . . كان القرار يتضمن تعيينها في نفس وظيفة
الأستاذ التي كان يشغلها زوجها قبل موته . . وتضمن
القرار أيضا أن تقوم هاري كوري بالتدريس محاضراتها
على طلبية وطالبات الجامعة اعتبارا من يوم الاثنين القادم
الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر . .

وفي الموعد المحدد ، كانت قاعة المحاضرات في
الجامعة قد امتلأت عن آخرها بحشد كبير من الجمهور
بالإضافة الى الطلبة والطالبات من تلاميذ زوجها . .

كان الجميع ينتظرون ما سوف تفعله تلك العسالة
وما سوف تقوله ..

ترى .. هل ستقوم بالثناء على زوجها الراحل
والثناء على أبحاثه العلمية ؟ .. هل ستشكر الجامعة
على قرار تعيينها في نفس الوظيفة التي كان يشغلها
زوجها ؟ .. ان ذلك كان بطبيعة الحال أمرا متوقعا
لا يخالفها فيه أحد .. !

ولكنها دخلت بكل هدوء الى قاعة المحاضرات ،
وبصوت رصين بدأت في القاء محاضراتها العلمية ، من
نفس النقطة التي توقف عندها زوجها في آخر محاضرة
القاها قبل موته ..

وانهمرت دموع الحاضرين وهم يستمعون الى
محاضرة تلك السيدة العظيمة التي وهبت حياتها
للعلم ، تقديرا منهم لموقفها المتناسك النبيل ..
وعندما انتهت المحاضرة ، أسرعت في الخروج
بنفس الهدوء والتواضع ..

رجال عظام .. ونساء عظيمات ٢٥٧

٢٣ - الحرب العالمية الأولى

واستمرت حياتها على هذا المنوال ٠٠ وفي عام ١٩١١ منحت جائزة نوبل مرة أخرى ٠٠ وفي عام ١٩١٤ تم انشاء المعهد العلمى الفرنسى الذى سيساعدها كثيرا على اجراء تجاربها وابحاثها العلمية الجديدة .

ولكن الحرب العالمية الأولى نشبت فى عام ١٩١٤ ، واصبحت فرنسا فى خطر حقيقى ٠٠ وحين اقترب هذا الخطر من مشارف باريس ، قامت مدام كورى بنقل كمية الراديووم التى يمتلكها المعمل ، وخبأتها فى مكان آمن خارج باريس كلها ، وأسرعت فى العودة بعد ذلك

الى باريس لتواصل أعمالا وجهودا استازمتها ظروف الحرب ..

وكان اكتشاف أشعة « اكس » واختراع الأجهزة الخاصة بتحضيرها قد تم منذ فترة بسيطة .. وبفضل مدام كورى ومعاونتها ، وضعت المئات من تلك الأجهزة فى مئات المستشفيات فى طول فرنسا وعرضها .. بل وجهزت بها أيضا بعض السيارات ليتمكن نقلها من مكان الى مكان حسب الحاجة ..

وقد أطلق على هذه السيارات اسم لطيف هو « سيارات كورى الصغيرة » .. وكثيرا ما كانت تشاهد مدام كورى وهى تقود إحدى هذه السيارات بنفسها ..

وقد قامت هذه الأجهزة بدور عظيم فى علاج عشرات ومئات الآلاف من الجرحى والمصابين بسبب المعارك الحربية ..

وماذا يمكن أن نقوله أيضا عن تلك السيدة العالمة العظيمة .. 19

لقد أخذت تكبر في العمر وتزداد ضعفاً ..
ولكنها مع ذلك ظلت محافظة على بذل جهودها العارضة
بكل نشاط وكل قوة ..

وفي سنة ١٩٢١ رحلت الى أمريكا .. وذلك على
اثر زيارة قامت بها إحدى صديقاتها الأمريكيات الى
باريس ..

٢٤ - صديقتها الأمريكية

منذ سنوات طويلة ، أعجبت سيدة أمريكية اسمها « مسز ملونى » بكل ما كانت تسمعه أو تقرأه عن حياة العاملة المناضلة مدام كورى . و برغم بعد المسافة بين أمريكا وفرنسا . . أصبحت مقابلة مدام كورى أهم أمانى تلك السيدة الأمريكية . .

وكم كانت السيدة سعيدة حين قابلت مدام كورى فى محلها فى باريس ذات صباح . . وقد قالت مسز ملونى تصف تلك المقابلة فيما بعد : « لقد رأيت سيدة ترتدى ملابس سوداء بسيطة مصنوعة من القطن . .

وفي ملامحها رأيت أكبر حزن رأيت من قبل على وجه
إنسان ! » .

وحاولت مسز ملونى أن نشرح لمدام كورى مدى
اعجاب سيدات أمريكا بها وبقصة كفاحها ونضالها فى
سبيل خدمة العلم والانسانية . . ومدى الفخر الذى
تحسه النساء الأمريكيات لأن واحدة من جنسهن
استطاعت أن تحقق كل هذه الانتصارات العلمية .

ثم تطرق حديثهما بعد ذلك الى الزاديوم . .
وأخبرتها مدام كورى بأن كل كميات اليورانيوم
الموجودة فى أمريكا لا تزيد عن خمسين جراما فقط ،
وأخذت تذكر لها أسماء المدن الأمريكية التى توجد فيها
هذه الكميات من اليورانيوم . وسألتها مسز ملونى :

— وما هى كمية اليورانيوم الموجودة فى فرنسا . . ؟
فأجابتها مدام كورى :

— فى معمل يوجد جرام واحد من اليورانيوم ! . .
— جرام واحد !؟ . . هل لا تملكين سوى هذا

الجرام الواحد من اليورانيوم ١٩٠٠

— أنا لا امتلك شيئا ٠٠ بل هو ملك للمعمل
العلمي الذي أعمل فيه ٠٠ !

وعندئذ سألتها مسز ملوني سؤالا قد يبدو غبيا
في ظاهره ولكنه يبدو في غاية الأهمية بالنسبة لمعناه
ومفراه :

— لو وضع كل ما في هذا العالم تحت طلبك ٠٠
فماذا تختارين منه ١٩٠٠

وأجابت مدام كوري بلا تردد :

— لا أريد أكثر من جرام آخر من اليورانيوم
حتى أتمكن من توسيع دائرة تجاربي وابحاثي
المعملية ٠٠ ولكنني لا أستطيع أن أشتري هذا الجرام ٠٠
لأنني لا أملك ثمنه ٠٠ !!

وحين عادت مسز ملوني الى أمريكا ، كانت قد
اختمرت في ذهنها فكرة الدعوة الى عمل عام ٠٠ وأخذت
تلقي المحاضرات وتكتب الرسائل والمقالات تدعو فيها

الشعب الأمريكي نساء ورجالا الى مشاركتها فى تلك
الفكرة ..

كانت مسز ملونى تقول ان مدام كورى قد
اكتشفت الراديوم بعد جهد علمى جبار استمر لسنوات
طويلة .. وقد أهلت اكتشافها الى العالم والانسانية
بلا مقابل .. وهى تحتاج الآن الى جرام واحد من
الراديوم لكى تواصل تجاربها وابحاثها لخدمة العلم
والتقدم ولكنها فقيرة لا تستطيع ان تشتري هذا
الجرام .. وأصبح الراديوم بفضلها يوجد فى أنحاء
كثيرة من العالم .. وان من واجب العالم الآن أن
يشترى لها جراما من اليورانيوم لتواصل به أبحاثها
التي ستهدىها الى العالم مرة أخرى .. وهى لا تريد
هذا الجرام لنفسها ، وانما ليكون ملكا للمعمل العلمى
الذى تعمل فيه ..

وفى خلال عام واحد ، استطاعت مسز ملونى أن
تجمع التبرعات من الشعب الأمريكى لشراء جرام
اليورانيوم المطلوب ..

٢٥ - الرحلة الى أمريكا

وابحرت مدام كورى الى أمريكا مصطحبة معها ابنتيها ، لتتسلم جرام اليورانيوم المهدى اليها من الشعب الأمريكى . . . وكانت رحلة طيبة ولكنها لم تنمتع بها . . . فقد كانت فى الرابعة والخمسين من عمرها . ولم يعد لديها القوة التى تمكنها من تحمل عناء الرحلات التى كان يجب ان تقوم بها لزيارة الجامعات والمعامل والمناجم التى كانت تتنافس فى دعوتها لزيارتها .
ولم يكن لديها القوة التى تمكنها أيضا من لقاء

المحاضرات أو تلبية كل الدعوات التي وجهت اليها
لتكريمها والاحتفاء بها .. ولهذا فقد كانت تنيب
ابنتيها في حضور معظم هذه الدعوات .

وفي أكثر من مرة ، كانت ابنتها « ايف » التي
بلغت آنئذ سنة عشر عاما ، تتولى الحضور نيابة عن
أمها في الملفات التي كانت تقام لتكريمها .. وكانت
تجلس في نفس المقعد الذي خصصه المحتفلون لأمها
وتسمع خطابا طويلا لمدح أمها والثناء عليها وعلى جهودها
الطويلة المضيئة لحمة العلم والانسانية .

٢٦ - كيف قبلت هدية الشعب الأمريكى ؟

وكان أهم الاحتفالات التى أقيمت لتكريمها ، تلك الحفلة العظيمة التى أقيمت فى واشنطن والتى تولى فيها الرئيس الأمريكى اهدائها الراديو باسم الشعب الأمريكى كله . . .
وقد اندهش الرئيس الأمريكى وعلية القوم وكبار العلماء حين علموا بأن مدام كورى قد قامت باهداء الراديو قبل أن تتسلمه . . . وفى اليوم السابق على هذا الاحتفال ، حين علمت مدام كورى أن الراديو

الذى سيهدى اليها سيكون ملكا لها ، وان وثيقة الملكية
قد دونت على هذا الأساس . . طلبت تغيير الوثيقة
ليصبح هذا الراديوم ملكا للعلم ولعملها الذى
سيخصصه لمزيد من التجارب والأبحاث العلمية .

وعندما قال لها المختصون ان ذلك يمكن أن يتم
بعد أن تتسلم الراديوم من الرئيس ، رفضت مدام
كورى وأصررت على اخضار أحد المحامين لتغيير وثيقة
الملكية . . وقالت :

— اذا أصبح هذا الراديوم ملكى ، فمعنى ذلك
أنه سيصبح ارثا لابنتى بعد وفاتى . . ولهذا فلا يمكن
أن أنتظر تغيير الوثيقة بعد اسبوع ، أو حتى بعد يوم
واحد . . فمن يدري ربما أموت بعد ساعات معدودة . .
يجب تغيير الوثيقة حالا !!

وتم العثور بصعوبة على أحد المحامين الذى تولى
تغيير نص وثيقة الملكية ليصبح الراديوم — الذى لم
تتسلمه بعد — ملكا للمعمل العلمى فى باريس .

وهكذا انتهت الحفلات التي أقيمت لتكريمها
وانتهت كذلك زيارتها لأمريكا ٠٠ وعادت مدام كوري
وابنتها مرة أخرى إلى باريس .

٢٧ - سنواتها الأخيرة

ومرت السنوات ومدام كورى تعمل بنفسى الهمة والنشاط ، ولكنها كانت تزداد ضعفا يوما بعد يوم . . وقامت بزيارات كثيرة الى بولندا . . وطنها الذى أحبته وخدمته . . كما قامت بزيارات عديدة لعائلتها ولأصدقائها القدامى.

وبالرغم من ضعف صحتها التى كانت تزداد سوءا باستمرار . . حققت المزيد من النجاح فى أبحاثها العلمية . . وكانت تقضى معظم أوقاتها فى عملها

بالمعهد العلمى بباريس ، حيث كان يحيط بها زملاؤها
وتلاميذها ومساعدوها الذين كانوا جميعا يحبونها أعظم
الحب ويقفرونها خير تقدير ، ويستمعون جيدا الى كل
ارشاداتها ونصائحها .

ولكن صحتها أصبحت تزداد سوءا وضعفا ..
وكان كبار الأطباء يحيطون بها وهم فى حيرة شديده
لعدم معرفتهم السبب الحقيقى لمرضها .. لأنه مرض
لم يدرسوه فى الكليات ولم يعرفوا عنه شيئا من قبل ..

وأخيرا اكتشف الأطباء أن مرضها كان نتيجة
لتعرضها للنشاط الاشعاعى الذى كان يصدر من
الراديوم الذى اكتشفته منذ سنوات طويلة ، والذى
حقق لها كل هذا الصيت والنجاح .. ولكنه كان فى
الوقت نفسه يدمر خلايا جسمها ..

وخلال ساعاتها الأخيرة كان ذهنها مازال متقدرا .
وظلت تتحدث عن العلم .. وعن العمل .. وعن
دراساتها وأبحاثها .. وعن الراديوم !

وفى الرابع من يوليو عام ١٩٣٤ ماتت مدام
كورى ٠٠ !

ودفنت فى احتفال بسيط حضره أقرب المقربين
من أصدقائها وأعضاء أسرتهما ٠٠ وفى نفس القبر
الذى يرقد فيه زوجها ٠٠ وعلى شاهد هذا القبر كتب
سطر جديد بسيط :

« ماري كورى سكلودوفسكا ١٨٦٧ - ١٩٣٤ » .

٢٨ - مديتها للعالم وفضلها على العلم

منذ أن نجح الزوجان ماري وبيري كوري في اكتشاف الراديوم .. حدثت اكتشافات علمية مذهلة نتيجة لهذا الاكتشاف العظيم ..

لقد استخدم الراديوم في شفاء بعض الأمراض الخطيرة .. واستخدم في تحسين تنمية النباتات والحيوانات .

وبفضل مدام كوري تيسرت سبل البحث العلمي لدراسة الفضاء فيما وراء الشمس والنجوم .. ولدراسة قياس أعمار بعض المخلوقات أو الأشياء التي

كانت موجودة منذ ملايين السنين .

حتى العلوم الذرية (سواء استخدمت لأجل الأعمال الحربية أو للأعمال السلمية) كانت نتيجة مبدئية للتجارب التي أجراها الزوجان كوري في الكوخ الذي اتخذاه معملًا متواضعًا في باريس ، وظلا يعملان به لأربع سنوات متواصلة من الجهد والكفاح العلمي المستمر .

وحين توفيت ماري كوري ، كتب أحد تلاميذها المخلصين : « لقد فقدنا كل شيء » .. وإذا كان هذا هو شعوره بالحزن العميق حين فقد أستاذه ومعلمته .. فان العالم كله يقول الآن عندما يذكر هذه المرأة العالمة العظيمة : « لقد تركت لنا الكثير .. وكسبنا منها الكثير .. لقد بذلت حياتها كلها من أجل العلم .. ومن أجل التقدم » .. !!

ألبرت شفايتزر

فى وسط افريقيا .. ومنذ مدة ليست ببعدة ..
عاش أحد الأطباء العظام .. وكان عمره قد تجاوز
الثمانين عاما قضى معظمها فى العمل وسط أهالى
افريقيا .

كان هذا الطبيب يعتبر افريقيا وطنه الثانى ..
وقد عاش حياة عظيمة غير عادية ، تستهوى قصنها
الملايين من الناس من كل جنس وكل دين ، وفى جميع
أنحاء العالم .

ومما لا شك فيه أن عظماء الرجال يعتبرون ملكا
للعالم أجمع ، وكان ألبرت شفايتزر أحد هؤلاء الرجال
العظام الذين يفخر بهم العالم . .

وحتى نتفهم أسرار تلك الحياة العظيمة التى
عاشها ، فإن علينا أن نتتبع جميع مراحل حياته ،
ابتداء بأيام طفولته ..



٢٧٧

البرت شفائتزر •

١ - الصراع

كانت فترة العصر دافئة في أحد أيام الحريف
في قرية صغيرة تسمى « جونزباخ » تقع في منطقة
« الألاسكا » ..

وكل القرية تبدو هادئة كما لو كانت قد استغرقت
في النوم .. وفجأة دقت أجراس الكنيسة أربع دقائق ..
أعقبها رنين جرس المدرسة معلنا انتهاء اليوم
الدراسي .. فوضع التلاميذ الكتب المدرسية داخل
الأدراج وتهيأوا للانصراف عائدين الى منازلهم ، محدثين
جلبة عالية من وقع أحذيتهم « الحشبية » على أرض
الفصل ..

وبعد خروج التلاميذ من مبنى المدرسة ، حدث
نقاش بين تلميذين .. قال التلميذ الأكثر طولا :

— أنت لا تجسر على الدخول معى فى مباراة
يا البرت شفايتزر .. أنا أقوى منك بكثير ..
وأستطيع بسهولة أن ألقى بك أرضا فى أى وقت
أشاء .. !

فقال التلميذ الأصغر :

— هذا ما تظنه فى نفسك .. مجرد كلام ..
ولكنك لا تستطيع فعل ذلك يا جورج .. !

وقال جورج :

— لا .. انى أستطيع !

فقال البرت :

— اذن .. دعنا نجرب !!

واختار الصبيان المتنافسان ساحة المعركة
المنتظرة ، على أرض ناعمة مستوية بأحد الحقول

واستعد كل منهما للانقضاض على الآخر .. وفي لحظة
خاطفة بدأت المعركة ..

هجم جورج أولا وأحاط بذراعيه حول وسنط
البرت ، وبدأ يضغط ليلقيه أرضا .. ولكن ألبرت
بدأ يقاوم بشدة .. واستخدم المتصارعان كل ما لديهما
من قوة ، وبدأ يلهثان وتقطعت أنفاسهما ..

وفجأة تمكن البرت من أن يفك ذراعى جورج من
حول وسطه ، وبسرعة البرق أمسك بساق جورج
ورفعها من الأرض ، وكانت الحركة التالية سقوط جورج
على ظهره ، وجلس ألبرت فوق بطنه معلنا انتصاره
وهو يضحك في سعادة غامرة ويقول :

— هاه .. ما رأيك الآن يا جورج .. هل تجسر
مرة أخرى على القول بأنك تستطيع أن تلقيني أرضا ؟

ربدأ جورج في البحث عن الكلمات التي يبرر بها
هزيمته .. وأخذ يقول باستسلام واضح :

— لقد انتصرت على يا ألبرت شفايتزر لأنك ابن

قسيس الكنيسة .. ولأنك معروف لدى الجميع بأنك
« الجنتليمان الصغير » .. ولأنك أيضا لا تشعر بالجوع
« مثلنا » .. فلو كان يحتاج لى أن أشرب حساء ولو مرتين
فى كل أسبوع لأصبحت قويا مثلك .. !

صمت ألبرت ولم ينطق بكلمة .. ولكنه قام
من جلسته فوق بطن جورج ، وأخذ كتبه المدرسية
التي كان قد ركنها على جانب من ساحة المعركة ..
وبدا يسير تجاه بيته .. ولكن جورج صاح خلاله :

— ألبرت .. ألبرت .. أرجو ألا تكون غاضبا
منى .. !

كان ألبرت محبوبا بالفعل من جانب كل
الأصدقاء .. ولكن الكلمات التي سمعها من جورج كان
لها وقع كبير فى نفسه .. وما أن وصل الى بيته ،
حتى دخل فورا الى حجرتة ، وألقى بنفسه على سريره ،
وأخذ يفكر ..

وعندما حل موعد تناول العشاء ، تجمع كل أفراد
الأسرة حول مائدة الطعام : الأب .. والأم .. وخمسة

من الأبناء .. ولدان وثلاث بنات .. وبدأ الأب يتلو
صلاة شكر لله : « بشرك يارب على ما وهبتنا من
طعام .. ان رحمك وسعت كل شيء » ..

وقال أحد الأبناء :

— ماذا أعددت لنا من الطعام يا أماء .. ؟

وقالت إحدى البنات :

— حساء .. أعتمد أنه حساء .. هذا شيء

عظيم .. !

وعندئذ قالت الأم :

— خذ يا ألبرت .. هذا طبق مملوء عن آخره

بالحساء .. فأنت أكبر الأبناء .. وتشعر بالجوع دائما

بعد عودتك من المدرسة .. !

لم يقل ألبرت شيئا .. بل جلس يتأمل في

طبق حسائه ، ويبدو وكأنه لا يسمع أصوات أمه وأبيه

واخوته .. بل يسمع بوضوح صوت زميله جورج

وهو يقول فى حسرة : « لو كنت أتناول الحساء مثلك
ولو مرتين كل أسبوع .. لأصبحت قويا مثلك ! » .
وأمسك بطرف المعلقة ، وغرف بها قليلا من
الحساء وأدخلها فى فيه .. ولكنه لم يستطع أن يبلع
الحساء فى جوفه .. فوضع المعلقة على حافة الطبق
وقال :

— لا أشعر بالجوع .. وليست لدى رغبة فى
الطعام ..

فقال الأم وهى تشعر بالقلق :

— لا تشعر بالجوع !؟ كيف .. هل أنت
مريض !؟

فقال البرت بهلوء :

— لا .. ولكنى لا أشعر بالجوع فعلا .. والآن ..
هل تسمحوا لى بالعودة الى غرفتى .. ؟
وعندما أصبح وحيدا بغرفته ، قال فى نفسه :

– لن أكون متميزاً عن الأولاد الآخرين .. ولن
أفعل شيئاً يجعلهم يشعرون بأنى مختلف عنهم ..
أريد أن يشعر الجميع بأننا أصدقاء حقيقيين !

٢ - الحياة فى البيت

كانت أسرة شفائيتزر تعيش سعيدة طول الوقت .. فالولدان والبنتان الثلاث يعلبون مع بعضهم أجمل الألعاب .. وكان أولاد وبنت الجيران يسعدون أيضا باللعب معهم حول البيت .

وكانت الأم « مسز شفائيتزر » تقضى كل وقتها فى خدمة الأسرة ورعايتها .. وكانت تجد كل سعادتها حين ترى أبناءها سعداء فى حياتهم ..

وكان الأب « مستر شفائيتزر » يعمل قسا فى

كنيسة القرية وكان محل حب واحترام وتقدير من جميع الأعمالي . وكانت وظيفته تلك تدر عليه دخلا بسيطا متواضعا يكفي بالكاد للوفاء بحاجات الأسرة ويهيئ لها حياة بسيطة .

ولكن الأب كان يحب أن يرى أبنائه وهم يرتدون ملابس حسنة وجميلة . وقد أدى ذلك الى حدوث نوع من سوء التفاهم بينه وبين ابنه ألبرت

ففي صباح أحد أيام الأحد . . وبينما كانت الأسرة تتأهب للذهاب الى الكنيسة ، دخلت الأم الى حجرة ألبرت وهي تحمل على ذراعها معطفا من معطف الشتاء وقالت :

— انظر يا ألبرت . . لقد استطاع أبوك أن يشتري معطفا شتويا جديدا لأن معطفه القديم أصبح ضيقا عليه . . وقد صنعت لك منه هذا المعطف الشتوي الجميل . . انه يبدو كما لو كان جديدا !

احمر وجه ألبرت وهو يقول لأمه :

— لا أريد أن أرتدى هذا المعطف اليوم . . فالجو

ليس باردا ولا يستدعى ارتداء مثل هذا المعطف .

فقالَت الأم على الفور :

— كيف .. ان الجو شديد البرودة في الخارج .
واندهشت الأم حين لاحظت عدم اهتمام البت
بالمعطف الشتوي الجديد .. واندهشت أكثر حين قال
البت :

— أماه .. أرجو ألا تجعليني أرتدى هذا
المعطف .. ان أحدا من أصدقائي أو زملائي لا يملك
معطفا شتويا مثله .. وأنا لا أريد أن أكون متميزا
عنهم !

وحزنت الأم كثيرا حين رأت البت لا يرتدى
المعطف الشتوي أيضا حين كان ينأهب للنهاب الى
المدرسة في صباح اليوم التالي .. وقله لبس الحذاء
الخشبي في قدميه ، وغطى رأسه بغطاء رأس ريفي
يلبس مثله جميع الأولاد في القرية .

واضطرت الأم الى إبلاغ زوجها بذلك . وقام

الأب على الفور باستدعاء البرت .. وكان الأب آنشد
جالسا في حجرته ليكتب شيئا ما .. وعندما امتثل
البرت أمامه ، وضع قلمه على المكتب وقال له :

— الآن يا بني .. أرجو أن تفهم أننا نعمل بجهد
لكي نربيكم ونرعاكم وننشئكم تنشئة حسنة .. وإن
أمك تعمل بكل طاقاتها لكي تعد طعامكم وملابسكم ..
وعليك أن ترتدى المعطف الشتوى الذى أعدته لك ..
فهو معطف يليق بابن قس الكنيسة .. !

فاجاب البرت موضعا وجهه نظره :

— ولكن يا أبى .. أنا لا أريد أن ...

ولم يكمل البرت اجابته حين رأى والده يمسك
بالقلم مرة أخرى ويبدأ فى الكتابة من جديد .
وقال الأب فى شيء من الحزم :

— أرجوك .. ولأجل خاطر أمك .. أن تسمع
الكلام وترتدى الملابس التى تقدمها لك .. هذا كل
شيء !

وخرج ألبرت من حجرة أبيه .. وكان هذا الموقف
بداية لاختلاف وجهات النظر بينه وبين أبيه .. وقد
استمرت هذه المشكلة لفترة طويلة .. حيث كان الأب
مصرًا على أن يكون مطاعًا من جانب الابن الذي يجب
أن يسمع الكلام ويرتدى المعطف الشتوي .. وكان
الابن مصرًا من جانبه على ألا يكون مختلفًا أو متميزًا
عن أصدقائه وزملائه الذين يلعبون معه أو يتعلمون معه
في المدرسة . وجميعهم كانوا لا يملكون معطفًا شتويًا
مما نل لهذا المعطف موضوع المشكلة .

وبطبيعة الحال فقد كان هؤلاء الأصدقاء والزملاء
لا يعرفون شيئًا عن هذه المشكلة التي نشأت بين ألبرت
وأبيه .. ولا يعرفون شيئًا أيضًا عن مشاعر ألبرت
نحوهم ، وقراره بعدم ارتداء المعطف الشتوي لأنهم
لا يستطيعون أن يمتلكوا معطفًا مثله ..

وظلت مشكلة هذا المعطف الشتوي مستمرة لفترة
طويلة ، حتى أصبح المعطف في النهاية أصغر من
مقاس جسم ألبرت . وبالتالي فقد أصبح مناسبًا لأخيه
الصغير .. ١

٣ - وفي المدرسة

كل زملائه في المدرسة كانوا يحبونه حبا جما ..
وعندما شعروا بأنه كان يغضب عندما يطلقون عليه
لقب « الجنّلمان الصغير » .. أصبحوا يصرون على
المزاح معه والمناداة عليه دائما بهذا اللقب ..

ولم يكن ألبرت على درجة كبيرة من الذكاء أثناء
فترة الدراسة . بل وكان يبدو سسارح الذهن في
أشياء أخرى غير ما يدور في الفصل أثناء شرح الدروس
ومذاكرتها -

وكثيرا ما كان يقول لوالديه أن هذا الولد أو ذاك

أفضل منه فى معرفة الدروس وفهمها .. وأنه لا يتميز
عن الآخرين الا بطول قامته وقوة بنيته وبأن الجميع
يحبونه دون استثناء ..

ولكن هناك شيئا فى غاية الأهمية كان يتميز به
ألبرت عن كل أقرانه .. الموسيقى !

فعندما كان فى سن الخامسة بدأ أبوه يسلمه
العزف على البيانو الذى كان لديهم بالبرت .. وبعد
فترة قصيرة أجاد العزف وأجاد قراءة النوتة الموسيقية
.. وحين بلغ الثمانية بدأ يتعلم العزف على الأرغن،
فأجاده اجادة تامة ، لدرجة أنه حين بلغ التاسعة من
عمره ، أصبح يستطيع أن يحل محل عازف الأرغن
فى الكنيسة التى يعمل بها أبوه ..

وفى سن التاسعة أيضا ، انتقل ألبرت الى
المدرسة الثانوية التى كانت تقع فى قرية تبعد عن
بيته عدة أميال .. وكان عليه أن يمشى هذه الأميال
على قدميه كل يوم للذهاب الى المدرسة والعودة منها ..
ولكنه كان يتمتع فعلا بهذا المشوار الطويل لأنه كان

يحب النجول كما يحب أن ينفرد بنفسه أوقانا طويلة
برغم حبه للناس الآخرين .

وفد لاحظ زملاؤه في تلك المدرسة الجديدة أن
من السهل اضحاكه . . وكان يضحك طويلا وبصوت
مرتفع . . ولذلك فقد كانوا يحرصون دائما على فعل
كل الأشياء التي تضحكه حتى أثناء وجوده في الفصل
.. لدرجة أن المدرس وضع علامة سوداء على كراسته
عقابا له على ضحكته أثناء الدرس . .

ولذلك أطلق عليه زملاؤه لقباً جديدا هبو . .
شفايتزر « الضاحك » . . !

٤ - حب الحيوانات

ومنذ أيام الطفولة - كان البرت يعطف ويحب جميع الحيوانات الصغير منها والكبير على حد سواء . . . وكان لا يطيق أن يرى تعرض هذه الحيوانات لأى أذى أو سوء معاملة .

وفى احدى المرات شاهد حصانا مريضا هزيلا يجر احدى العربات الثقيلة فى شوارع القرية . . . وكان سائق العربته ينهال بالعصا على ظهر هذا الحيوان المسكين ليحثه على السير . . . وظل البرت متألما من هذا المنظر الذى علق بذهنه لأسابيع طويلة . . . وحين كان

يتأهب للنوم ، كان هذا المنظر يمر بذهنه فيبدد النوم
من عيئه . . وكان يتعجب حين يسمع صلوات أبيه
لكى تسود المحبة والرحمة بين الانسان وأخيه الانسان
دون ذكر الحيوانات التى كان يراها تستحق المحبة
والرحمة تماما مثل الانسان .

لذلك ، فى كل مرة كان يتأهب فيها للنوم . .
كان يؤدى صلاة خاصة به يقول فيها : « وارحم يارب
كل كائن يتنفس . . واحفظه بعيدا عن شرور الناس
وأذاهم . . ودع كل الحيوانات تعيش فى سلام وتنام
فى سلام » . .

وفى احدى المرات مر ألبرت بتجربة كاد أن
يتعرض فيها لتوقيع الأذى على بعض الطيور . . حين
أغراه ولد صغير من زملاء المدرسة اسمه هنرى بأن
يشاركه فى احد الألعاب . . فقد جاءه صديقه هنرى
هذا وهو يمسك فى يديه « نبله » مصنوعة من فرع
شجرة صغير وقطعة من « الأستك » . .

وقال هنري :

— شفايتزر .. أنظر ماذا صنعت !

وأعطاه «النبله» فأخذ البرت يتفحصها وأعجب بها
وقال لصديقه :

— نبله جيدة .. ليتنى أمتلك واحدة مثلها

فقال هنري ببساطة :

— لقد صنعتها بسهولة .. وتستطيع أنت أيضا
أن تصنع واحدة أخرى .. هيا الآن !

وأخذ الصبيان يبحثان بين فروع الاشجار الجافة
على قطعة صغيرة مناسبة تصلح لصناعة النبله ..
وجهازها أيضا بقطعة من الأستك .. وأصبحت النبله
الجديدة صالحة للاستعمال .. عندئذ قال هنري :

— والآن .. هنا تصعد الى أعلى التل لتصطاد
الطيور الجميلة التي تمتلئ بها أغصان الشجر !

وصعدا الصبيان الى أعلى التل .. ووقفا تحت
الأشجار .. وكانت هناك مجموعة كبيرة من الطيور
الصغيرة صفراء الريش ، وعلى رأسها ريش صسغير
أحمر .. وكان منظرها جميلا ويبعث على البهجة ..

وعندئذ قال هنرى :

— أنظر الآن الى ما سوف أفعله !

والتقط هنرى حصة كروية الشكل ووضعها
فى الثبلة وبدأ يجنب « الأستك » ويصوب قذيفته
صوب أحد الطيور الصغيرة الجميلة . ولكن فجأة
دقت أجراس الكنيسة ، وتردد صدى رنينها فى جميع
الانحاء .. وكان صدى الرنين يختلط بتغريد الطيور
الجميلة وهى تنتقل مبتهجة بين غصن وآخر ..

وعندئذ تذكر ألبرت صوت أبيه وهو يتلو الموعظة
فى صلوات ايام الأحد .. « لا تقتل ! » .. وفى
سرعة البرق بدأت هذه الوصية تتردد فى ذهن ألبرت
.. كما لو كانت تحذره من أن يرتكب جريمة القتل ..

وفى لمح البصر أخذ البرت يصيح بصوت مرتفع
ويصفق بيديه بشدة .. فانزعجت جميع الطيور
وطارت من فوق أغصان الشجر .. وهنا فقط ارتاح
قلب البرت حين رأى الطيور الجميلة وقد أنقذت ..
أو على الأقل أنقذ الطائر الصغير الذى كان هنرى يصوب
قذيفته اليه .. وبعد ذلك أخذ البرت يجرى بسرعة
عائدا الى البيت ، بعد أن تخلص أيضا من النبلة التى
اعتبرها أداة من أدوات القتل .

ومنذ ذلك اليوم ، لم يشترك البرت إطلاقا مع
اصدقائه أو زملائه فى صيد الطيور أو صيد الاسماك
أو أية لعبة أخرى تؤدى الى ازهاق روح أى طائر أو
حيوان ..

ومرت الأيام والشهور والسنين .. وكان البرت
شفقتز لا يحصل على درجات عالية فى الامتحانات
أو أثناء العام الدراسى .. وحين أحس بأن أبويه كانا
يحزانان بسبب ذلك ، وعدهما بأن يجتهد فى حفظ
ومذاكرة دروسه جيدا ليرضيتهما .. وبالفعل فقد أقبل

على الدراسة يهمة زائلة حتى بالنسبة لبعض العلوم
التي كان لا يحبها .. اما احب العلوم واقربها الى قلبه
فقد كان علم التاريخ .. !

٥ - الموسيقى

واصل البرت شفايتزر دراسته للموسيقى، ولكنه لم يواظب على التمرين المستمر ، كما أن عزفه كان خالياً من الاحساس الذي يجب ان يتوافر لدى عازف الموسيقى المتمرسين . . . ولكن ربما اتخذ البرت هذا الموقف بسبب اقتناعه بأنه « ولد » ولذلك فيجب ألا يظهر مشاعره الداخلية الحقيقية مثلما تفعل البنات . . . وبطبيعة الحال فقد كانت هذه فكرة خاطئة وكان من الواجب أن يتخلص من آثارها . . .

وفي إحدى المرات بينما كان يتلقى درسه

الموسيقى ، ويقوم بعزف احدى القطع الموسيقية امام
اسناذه عزفا خاليا من الاحساس .. فقد الاستاذ
اعصابه وعنفه قائلا :

— انك لا تستحق أن تعطى هذه الموسيقى الرفيعة
لتعزفها ينلك الطريقة الحالية من الاحساس '

ثم أعطاه الاستاذ مقطوعة اخرى ليتمرن عليها
حتى الاسبوع التالى ، وقال له :

— خذ هذه المقطوعة .. وسأسمع عزفك لها فى
الحصة القادمة .. واذا لم يكن لديك احساس
بالموسيقى .. فانى لن أستطيع ان ساعدك بعد ذلك !

وفى أثناء عودته الى البيت بعد انتهاء درسه
الموسيقى .. كان ألبرت يفكر فى قرارة نفسه : « اذا
لم يكن لديك احساس بالموسيقى .. ماذا يظن بى
الاستاذ. .. هل يظن أنى مجرد من الاحساس .. ألا
يعرف أن الموسيقى هى أفضل متعائى !؟ » ..

وظل ألبرت يتمرن على عزف المقطوعة التى أعطاه

الاستاذ نوتتها الموسيقية .. واستمر التمرين يوما
وراء يوم بكل عناية واستغراق .. وفي نهاية الاسبوع
ذهب ليعزفها أمام الاستاذ .

وقال الأستاذ وهو يستقبله :

— هاه .. أدنى كيف ستشوه هذه المقطوعة
بعزفك الخالي من الاحساس !

وعزف ألبرت المقطوعة بدقة واحساس سليم ..
وما أن انتهى من العزف حتى قال له الأستاذ :
— شكرا ..

ولم يقل أية كلمة أخرى .. ولكن الأمور تغيرت
منذ تلك اللحظة .. حيث بدأ الأستاذ يفتح آفاق
الموسيقى الرفيعة أمام تلميذه .. وجعله يمزج حاسيسه
ومشاعره بالجميل الموسيقية التي يعزفها ..

ومنذئذ تمسكن حب الموسيقى من قلب ألبرت
شفايتزر .. وكانت موسيقى « باخ » المؤلف الألماني
الشهير ، هي أقرب المؤلفات الموسيقية الى قلبه ..

خصوصاً المؤلفات التي كتبها هذا الموسيقي العظيم -
لتعزف على آلة الأرغن ١٠٠

٦ - الامتحانات المدرسية

كان البرت شفايتزر قد بلغ الثامنة عشرة من عمره حين انتهت دراسته بالمدرسة الثانوية . وكانت نتيجة امتحاناته النهائية سارة بالنسبة له وبالنسبة لأصدقائه . .

كان حينئذ يعيش في منزل عمه الذي يقع في قرية تبعد قليلا عن « جوتزباخ » وذلك لكي يصبح قريبا من مقر المدرسة الثانوية . وعندما اقترب موعد الامتحانات النهائية قالت له زوجة عمه :

- لا تنس ان تقاليد المدارس الثانوية هنا تحتم

على الأولاد أن يرتدوا معاطف سوداء وينطلون سوداء
ذات أشرطة ، وذلك حتى يتمكنوا من دخول الامتحانات
النهائية ..

فقال البرت :

— لدى معطف اسود .. ولكنى لا أملك ينطلونا
اسود ..

فقال زوجة العم بهزم :

— اذن يجب ان نشتري ينطلونا اسود قورا ..

وقال البرت :

— مستحيل .. لأن والدى لا يمتلك فائضا من
النقود لشراء ملابس جديدة .. كما أن البنات وحدهن
هن اللاتى يرغبن فى ارتداء الملابس الجديدة ..

ونظر الى عمه وقال :

— ما رأيك يا عمى .. هل يمكننا أن تقرضنى
ينطلونك الاسود .. ١٩

**فقال العم بدهشة وهو يرفع عينيه من الجريدة
التي يقرأها :**

— أقرضك بنطلوني ١٤ ٠٠ على العموم فلا مانع
لدى اذا كان البنطلون على مقاسك ٠٠ عليك أن تجربته
أولا ٠٠ !

ونظرا لأن البرت لم يكن يهتم كثيرا بموضوع
الملابس ، فلم يجرب ارتداء بنطلون عمه ليرى كيف
تكون النتيجة . وفي صباح يوم الامتحان تمت التجربة
وكانت النتيجة مضحكة للغاية ٠٠ فقد كان البرت
نحيفا طويلا ، بينما كان عمه بدينا وقصيرا ٠٠ ولذلك
فان البنطلون لم يصل الا الى منتصف ساقيه ٠٠ أما
في منطقة الوسط ، فقد كان البنطلون يتسع لشخصين
آخرين في حجم البرت !

ولكن لم يكن هناك وقت للتصرف ، وذهب الى
الامتحان بهذا الشكل المضحك ٠٠ ورغم أن جميع
الطلبة من زملائه كانوا متوترين وقلقين وأعصابهم
مشدودة بسبب الامتحان ، الا أنهم جميعا انفجروا في
٣٠٥

الضحك حين رأوا ألبرت قادما نحوهم وهو يرتدى هذا
البنطلون العجيب !

وقد اجتاز الامتحانات التحريرية والشفوية
بنجاح ، وحاز في علم التاريخ درجات عالية .. وأصبح
الآن جاهزا للدراسة الجامعية .

والتحق ألبرت بجامعة ستراسبورج .. وواصل
دراسته الجامعية أيضا أثناء أدائه للخدمة العسكرية لمدة
عام كامل .. وبينما كان الجنود من زملائه يقضون
أوقات فراغهم في اللعب أو الأحاديث السارة ، كان
ألبرت يقضى هذه الأوقات منهمكا في الدراسة وقراءة
الكتب والمراجع .

٧ - الموسيقى مرة أخرى

وثلثي خريف عام ١٨٩٣ ، زار البرت باريس لأول مرة . وعاش لفترة في بيت أحد أعمامه . . وكان هدفه الرئيسي من زيارة باريس هو رؤية آلات الأرغن الضخمة ومقابلة عازفي الأرغن المشهورين .
وقد ساعدته زوجته عمه في مقابلة « المسيو فيدور » وكان من أشهر عازفي الأرغن الفرنسيين وهيأت له الفرصة في أن يعزف أمام هذا العازف الشهير ليرى ان كان عزفه للأرغن يستحق الاستمرار فيه أم لا . .
وكان أول سؤال وجهه اليه مسيو فيدور :

. هاه ٠٠ ماذا ستسمعنى ؟!

فقال ألبرت :

— مقطوعات من موسيقى باخ ٠٠ طبعاً !

وجلس ألبرت على مقعد آلة الأرغن ٠٠ وكانت
أضخم وأفخم آلة شاهدها من قبل ٠٠ وبدأ العزف ٠٠
وانغمس فى الموسيقى بكل مشاعره وأحاسيسه
وانفعالاته ٠٠ ونسى كل شيء حوله عدا نغمات الموسيقى
وهى تتلاحق فى الخروج من الأرغن ٠٠

أما مسيو فيدور ، فقد نسى أيضاً أنه يستمع
الى عزف عازف ريفى مجهول ٠٠ وانغمس بدوره فى
سماع الموسيقى والاستمتاع بأنغامها ٠٠ وتأكد لديه
أن هذا العازف القادم من الريف يملك الامكانيات
الفنية لعازف قدير . وما أن انتهى ألبرت من العزف
حتى بادره مسيو فيدور قائلاً :

— عظيم ٠٠ ولكن كيف سترتب أمورك لحضور
الدروس التى أنوى أن أعلمك اياها ٠٠ ؟!

وكان هذا السؤال بداية لصداقة عظيمة استمرت
بينهما الى آخر الحياة .. وكلما جاء ألبرت الى باريس
كان يتلقى دروسه فى الموسيقى على يدى العازف الشهير
الكبير ماسيو فيدور .. وعندما كان يتوفر لديه بعض
المال ، كان يدفع أجر تلك الدروس .. وحين لا يتوفر
المال ، كان يتلقى دروسه بلا مقابل ..

٨ - القرار العظيم

وفي سن الحادية والعشرين ، اتخذ ألبرت شفايتزر قرارا هاما يتعلق بمستقبله . . . ففي فترة العطلة الصيفية كان يعود الى قريته الصغيرة « جونزباخ » . . . وانتهاز فرصة الهلوء في جو القرية ليفكر فيما عساه أن يكون في مستقبل حياته . . .

هل يصبح أستاذا بالجامعة يلقي المحاضرات ويؤلف الكتب ؟ . . أم يصبح قسا في كنيسة إحدى القرى مثل والده ؟ . . أم يصبح عازفا شهيرا مثل صديقه مسيو فيدور ؟ . . ان اتخاذ مثل هذا القرار

يشير حيرة الشباب في هذا السن ..

واستيقظ مبكرا في صباح أحد الأيام ، واطل من نافذة الغرفة فرأى الريف الجميل في بهائه وروعته .. فقال لنفسه :

— باى حق أستحق أن أمتع نفسي بكل هذا الجمال وأشعر بكل هذه السعادة .. في حين أن العالم مغمم بالشقاء والأشياء المؤلمة التي تثير الأحزان .. ١٩

في طفولته كان لا يطيق أن يرى طيرا حبيسا في قفس .. ولكنه الآن أصبح يدرك أن كثيرا من الناس يتعذبون ويعانون من أوضاع حياتهم .. وعاد يقول لنفسه من جديد :

— هانذا في الحادية والعشرين من عسى .. قوى مثل الحصان .. سعيد في بيتي وبين أعلى .. وأحب عمل .. وقريتي .. وأصدقائي .. وكتبي .. وهوسيقاي .. فباى حق أتمتع بكل هذا القدر من السعادة .. ٢٠

ومر بذهنه شريط طويل من الذكريات : سمع

كلمات صديقه جورج حين تصارك معه فى أحد أيام
الطفولة وهو يقول له « لو كنت أستطيع أن آتناول
الحساء ولو مرتين فى الاسبوع لأصبحت قويا مثلك ! »
كما سمع كلمات صديقه هنرى حين قال : « فلنصعد
الى أعلى التل لنصطاد الطيور ! » .. كما شعر بكل
تلك الدوافع القديمة التى جعلته يشعر بالرحمة
والشفقة على كل الكائنات الضعيفة التى تحتاج العون
والمساعدة .

وعاد يقول لنفسه مرة أخرى :

— لقد كنت دائما من المحظوظين .. ولكن ماذا
عن الناس الآخرين .. لقد حاولت أن أنساهم وأعيش
حياتى الشخصية الخاصة .. ولكنى رأيت أن هذا العمل
يتسم بالأنانية البغيضة .. وأصبحت لا أستطيع أن
أشعر بطعم السعادة بينما العالم من حولى يعاني من
متاعب الحياة ! ..

وفى ذلك الصبح الجميل المبكر لأحد أيام
الصيف ، اتخذ ألبرت شفايتزر القرار التالى : « فليظل

حتى الثلاثين من عمره متفرغا للدراسة وللموسيقى ..
ثم يهب بعد ذلك حياته كلها لخدمة الآخرين » ..

وعندما ارتدى ملابسه وخرج ليتمشى قليلا قبل
أن يحل موعد افطاره .. أحس بهدوء نفسى شديد بعد
أن اتخذ هذا القرار ..

وفى خلال السنوات التسع التالية ، أكمل
شفايتزر تعليمه الجامعى ، وبدأ يؤلف بعض الكتب
منها كنايين عن الموسيقى الألمانى « باخ » .. وأخذ

يلقى بعض المحاضرات فى جامعة ستراسبورج ، بل
وأصبح عميدا لأحدى الكليات ، كما أصبح قسما فى
أحدى الكنائس ، كما حرص على عزف الأرغن بانتظام .

وكانت حجرة المكتب فى بيته ممتلئة بالكتب
والأوراق التى كانت تأخذ كثيرا من وقت السيدة
العجوز التى تخدمه حتى تنظيفها وتعيد ترتيبها .. ولكن
السيدة كانت مع ذلك سعيدة لأنه لم يعرض إطلاقا
على أى طعام تضعه أمامه .. كما لم يعرض يوما لأن
ملابسه لم تصلح كما يجب ..

وعلى مدى سنوات طويلة كان شفايتزر يفكر في نوع العمل الذى سيتمخصص فيه بقية حياته . وقد انضم الى مجموعة من الشبان والشابات جعلوا أنفسهم فى خدمة الفقراء فكانوا يزورون عددا كبيرا من العائلات الفقيرة لمساعدتها وتلبية احتياجاتها .

وقد تعرف شفايتزر على احدى الشابات من ضمن أعضاء هذه المجموعة ، وعقد معها أواصر الصداقة ، ثم تزوجها فيما بعد .

ومرت السنوات حتى بلغ شفايتزر سن التاسعة والعشرين . . وفى احدى الامسيات ، . عشر فى مكتبة على احدى الجرائد التى يبدو أن شخصا ما قد نساها هناك . . وفى هذه الجريدة قرأ مقالا يصف الحالة البائسة التى يعيش فيها قبائل الزنوج من سكان الكونجو ووسط افريقيا . . حيث ينتشر الجوع والمرض وحيث توجد مناطق شاسعة تمتد مئات الأميال ، لا يوجد فيها طبيب واحد .

وفى تلك الامسية ، اختار البرت شفايتزر هدف

حياته المستقبلية .. لا بد أن يذهب الى افريقيا لمساعدة
أهلها .. وما دام هؤلاء الأهالي يحتسجون الى الرعاية
الطبية ، فلا بد أن يذهب اليهم كطبيب لمعالجة
أمراضهم بقدر ما يستطيع .. !

واندهش أصدقاؤه جميعا حين سمعوا هذا القرار
المفاجيء .. فهذا رجل في امكانه ان يعيش سعيدا في
أوروبا .. وفي استطاعته ان يصبح طبيبا أو أستاذا
جامعيا أو كاتباً أو عازفا للأرغن .. ولكنه اختار
أصعب طرق الحياة .. اختار ان يدفن نفسه بين
القائل الافريقية السوداء التي تعيش في مناطق موبوءة
بأخطر الأمراض ..

قال بعض أصدقائه أن هذا القرار يدل على
الهوس والجنون .

وقال صديقه مسيو فينور :

— ولكن لماذا يا ألبرت تذهب الى افريقيا كطبيب
وانت لم تدرس الطب بعد .. فلتذهب الى هناك
كواعظ ديني .. وهو عمل أنت مؤهل له خير تأهيل ..

واجابه شفائتزو :

— ان الناس هناك ليسوا فى حاجة الى الكلام ..
انهم يحتاجون الطعام والعلاج الطبيى .. وما فائدة أن
تحدث مثل هؤلاء الناس عن عقيدة أو دين يقوم على
المحبة ، دون أن تثبت لهم ذلك بطريقة عملية .. ١٩

٩ - دراسة الطب

وعلى مدى السنوات الخمس التالية ، انغمس شفايتزر في دراسة الطب ٠٠ وكانت دراسة صعبة مضنية ، ولكنه ظل مواظبا عليها ومجتهدا فيها حتى اجتاز الامتحانات النهائية بنجاح كبير ٠٠ ثم قضى سنة أخرى للتدريب في إحدى المستشفيات ٠٠ ولجميع النقود اللازمة للمستشفى الذي ينسوى اقامته في افريقيا ٠٠ !

وعاونه بعض الأصدقاء في جمع التبرعات ، كما أقام عدة حفلات كان يعزف فيها على الأرغن ، وكان

يخصص دخل هذه الحفلات لمشروع المستشفى

وفي خلال تلك الفترة تزوج بالشبابية التي
أحبها .. والتي كانت تتمرن بدورها على مهنة التمريض
أثناء دراسة زوجها للطب ..

وقبل أن يصبح الزوجان مستعدين تماما للسفر،
قضيا بضعة أسابيع في شراء كل الاحتياجات الخاصة
بمشروع المستشفى .. وفي النهاية ، عندما حل ربيع
عام ١٩١٣ ، اسنقل الزوجان ظهر السفينة التي رحلت
بهما الى سواحل غرب افريقيا .. وكان عمر شفايتزر
آنذا ، ثمانية وثلاثين عاما ..

١٠ - الوصول الى أفريقيا

وصلت السفينة الى ميناء صغير يقع عند مصب
نهر « أوجو وي » .. ومن هناك استقل الزوجان قاربا
نهريا ظل يبحر بهما صعودا مع مجرى النهر لمدة يومين
كاملين .. وكانت الغابات الكثيفة تحيط بشاطئ
النهر .. وكان الجو حارا ورطبا طول الوقت سواء
أثناء الليل أو أثناء النهار ..

وعندما وصل القارب النهري الى مشارف القرية
- الافريقية التي اختارها شفايتزر لاقامة مستشفاه ..
وكانت قرية صغيرة تسمى « لامباريني » .. تجمع

حوله مجموعة من الأهالى السود .. يركبون قوارب
بدائية مصنوعة من جذوع الأشجار ، ويستخدمون قطعاً
طويلة من الخشب كمجاديف ..

وأحاطت هذه المجموعة من القوارب البدائية
بالقارب النهري الذى كان يركبه الزوجان شفايتزر ..
وكان الأهالى يجندفون وهم يغنون فرحين : هوبا ..
هوبا .. هوبا .. بوبا .. تسوت تسوت .. هوبا
.. بوبا .. هوبا .. بوبا ..

وأخيراً وصل الركب الى منطقة تشبه خليجاً
صغيراً يحيط به تل منخفض ، تتناثر عليه مجموعة من
الأكواخ الفقيرة .. وفى هذه المنطقة عاش شفايتزر
وزوجته لسنوات طويلة .

وسرعان ما انتشرت فى أرجاء الغسابات المحيطة
الأنباء السارة بوصول أحد الأطباء الى قرية «لامبارينى»
.. وسرعان ما تجمع المرضى من كل صوب .. قادمين
نحو القرية زرافات ووحشانا .. حتى قبل وصول
القارب النهري الذى يحمل المعدات الطبية التى أحضرها
الزوجان ..

وفى كل صباح ، عندما كان شفايتزر يخرج من مسكنه ٠٠ كان يرى عشرات من المرضى الذين حضروا منذ الصباح المبكر ، وقد جلسوا على الأرض فى انتظاره ٠٠ عشرات من الأفريقيين الذين يعيشون فى اعماق الغابات ٠٠ من الشيوخ والنساء والرجال والشبان والشابات والأطفال الصغار والأطفال الرضع ٠٠ وكانوا جميعا يعانون من أمراض عدة بسبب الجو غير الصحى وبسبب سوء التغذية وقلة الطعام الذى يتناولونه .

وقال له أحد هؤلاء الشبان المرضى :

— اتنا جميعا نشكو من المرض ٠٠ كل فرد يعيش فى هذه البلاد لا بد أن يكون مريضا بمرض ما ٠٠

وقال أحد رؤساء القبائل :

— ان الأرض تأكل أطفالنا ٠٠ !

ولم يمر وقت طويل ، حتى أصبح شفايتزر هو الملاذ الوحيد لراحة الأهالى ٠٠ بل كانوا يستريحون بمجرد النظر الى وجهه ٠٠ وكانوا يقصدونه من مختلف

المناطق ، بل ومن مناطق تبعد عن قرية « لامباريني »
بمئات الأميال ..

وعندما وصلت الأدوات والمعدات الطبية التي
استحضرتها معه ، لم يكن هناك مكان مناسب لحفظها ،
وظل يباشر علاج مرضاه في العراء والهواء الطلق ..
ولكن عندما ابتدأت الأمطار الغزيرة تنهمر من السماء ،
قام بتنظيف عشة واسعة كانت مستخدمة في تربية
الدجاج ، وجعلها مقرا يستقبل فيه مرضاه ..

وفي خلال الشهور الأولى التالية على وصوله الى
افريقيا .. كانت زوجته تعاونه في عمله الى جانب
قيامها بالاشراف على أعمال البيت .. وكانت بمجرد
الانتهاء من هذه الأعمال ، تسرع بالذهاب الى عشة
الدجاج لمساعدة زوجها في عمل العمليات الجراحية
أو في الكشف على المرضى وعلاجهم بمختلف أنواع
الأدوية ..

١١ - جوزيف

وشعر شفايتزر بسعادة غامرة حين شاهد ضمن
مرضاة السود ، رجلا ذا ملامح ذكية ، ويعرف الكلام
باللغة الفرنسية ، وكان يعمل طبائحا لدى أحد الرجال
البيض . وقال له شفايتزر :

- هل يمكنك أن تعمل لدينا كطباخ . وان
تساعدنا أيضا في أعمال المستشفى ؟
علا البشر وجه الطباخ وابتسم راضيا وهو
يقول :

— نعم يا دكتور .. أستطيع أن أعاونك فى كل
شئ !

هكذا تعرف الزوجان على « جوزيف » الذى عمل
معهما لسنوات طويلة بكل اخلاص .. وكان هذا الرجل
الذكى يستطيع التحدث بشمانى لغات .. وكان أمينا
وشفوقا وحاذقا ويؤدى عمله دون كلل أو ملل ..
ولكن أغرب شئ فيه أنه كان لا يستطيع قراءة أو كتابة
اللغة الفرنسية ، ومع ذلك فقد كان يستطيع ان يحضر
اية زجاجة دواء يطلبها شفايتزر .. وقد سأل شفايتزر
فى يوم ما :

— كيف تستطيع أن تميز بين زجاجات الدواء
وكلها متشابهة .. وانمت لا تعرف قراءة الفرنسية ؟

وكان جوزيف يرد ببساطة :

— انى احفظ فى ذاكرتى شكل الكلمات المكتوبة
على كل زجاجة !

وعندما قال جوزيف : « أستطيع أن أعاونك

يا دكتور في كل شيء ، .. كان صادقا مع نفسه ومع
الطبيب .. فقد كان جوزيف يعاون الزوجين في جميع
أعمال المستشفى .. وكان يترجم لهما ما يقوله الأهالي
الذين لا يعرفون سوى لغاتهم ولهجاتهم المحلية ..
وكان يساعد الزوجين في فهم التقاليد والعادات
الافريقية ..

وحين كان شفايتزر يفضب بسبب سرقة أحد
الأشياء الصغيرة من البيت ، كان جوزيف يشرح سبب
السرقة للدكتور وهو يبتسم :

— انك لم تغلق عليه جيذا يا دكتور .. ولذلك
فقد ذهب ليتمشى .. !!

١٢ - الحياة فى لامبارينى

وقام أصدقاء شفايتزر فى باريس بشراء بيانو كبير وأهدوه له مرسلا على إحدى السفن ٠٠ حتى وصل البيانو أخيرا الى المسكن المتواضع الذى كان يعيش فيه الزوجان شفايتزر فى قرية لامبارينى ٠٠

وظل البيانو منزويا - دون أن يمس - فى أحد أركان البيت ٠٠ وكان شفايتزر يقول لزوجته :

- لا ٠٠ لا تسألينى أن أعزفه على هذا البيانو ٠٠
ان قدمى الى افريقيا معنساء نهاية حياتى كماؤف للموسيقى ٠٠ !

ولكن بمرور الوقت ، بدأ شفائيتزر يعزف على البيانو بعد انتهاء عمله بالمستشفى في إحدى الأمسيات . . . ومنذ تلك الأمسية بدأ صوت الموسيقى يتردد في جنباته القارية . . . وبدأ شفائيتزر يجد الوقت الكافي لكي يتعمق أكثر وأكثر في الموسيقى الرفيعة النبيلة التي ألفها الموسيقار الألماني « باخ » .

وبمرور الوقت أيضا ، أصبحت هناك حجرتان نظيفتان تستعمل أحدهما للكشف على المرضى ، وتستخدم الأخرى كغرفة عمليات . . . كما جهزت بعض الحجرات الأخرى بالأسرة اللازمة لرقار بعض المرضى الذين يستلزم علاجهم البقاء تحت إشراف شفائيتزر لفترة .

وفي الليلة الأولى من افتتاح هذا المستشفى قام شفائيتزر بالمرور ليطمئن على راحة مرضاه الراقدين على الأسرة ، ففوجئ بمنظر لم يتوقعه إطلاقا . . . فقد رأى المرضى راقدين على الأرض ، بينما كان أقاربهم أو أصبنقاؤهم ينامون فوق الأسرة !! . . . فقام شفائيتزر

على الفور بتصحيح هذا الوضع الغريب ، وأخرج
الأصحاء من مبنى المستشفى ، وأعاد المرضى للرقاد على
الأسرة المخصصة لهم ..

١٣ - العمل فى المستشفى

استمر العمل فى المستشفى لمدة أطويلة وكان العمل يتحسن باستمرار ٠٠ ولكن الشيء الذى كان يشير الاشفاق هو الحالة البائسة للمرضى الذين كانوا يحضرون الى المستشفى من أماكن بعيدة نائية ٠٠ فقد كانوا جميعاً لا يعرفون شيئاً عن العلاج الطبى ٠٠ وكانوا يتعاملون مع الدكتور شفايتزر على أساس أنه ساحر ماهر !

بل لقد أطلقوا عليه اسم « أوجاندا » ومعناه الساحر القدير الذى يعرف جيداً أسرار الأعمال

السحرية . وقالت عنه امرأة عجوز كانت تشكو من
مرض بالقلب :

- أنه ساحر عظيم . . لقد عرف بسهولة أنى لا
أستطيع أن أتنفس جيدا أثناء الليل . . كما عرف أن
قدمى تتورمان فى بعض الأحيان حتى قبل أن يرحما
بل ودون أن أخبره بذلك . . !

وكان المرضى وذووهم ينمجبون لطريقة التخدير
التي كان يقوم بها لمرضاه قبل إجراء العمليات
الجراحية . .

وقالت فى ذلك احلى الفتيات :

- منذ أن جاء « الأوجاندا » الى هنا . . ونحن نرى
أعمالا سحرية غريبة . . انه يقوم « بقتل » المرضى لفترة
بسيطة . . وبعد أن « يصلح » اجسادهم يعيدهم الى
الحياة مرة أخرى وقد شفوا من أمراضهم !

وبعد مرور نحو تسعة شهور من العمل المتواصل
فى هذا المستشفى ، كتب شفايثزر لأصدقائه فى باريس



المستشفى في لامباريني

لأنه قد قام في خلال تلك المدة بعلاج نحو ألفين من المرضى الذين كانوا يشكون من مختلف أنواع الأمراض . . . وأنه لذلك في حاجة إلى المزيد من المستلزمات الطبية لكي يستمر علاج المزيد من الناس .

وفي أحد الأيام وصل رجل مريض جدا ويصرح من شدة الألم . . . وكان في صحبة هذا المريض مجموعة من أصدقائه هم الذين حملوه من منطقة بعيدة حتى أوصلوه إلى المستشفى . . . وكان الرجل - مازال يصرخ بين حين وآخر من شدة الآلام التي لا يستطيع أن يتحملها أو يطيقها . . . وقال له الدكتور شفايتزر :

— لا تخف . . . ستنام الآن لفترة أقل من ساعة . . . وعندما تستيقظ مرة أخرى . . . لن تشعر بشيء يؤلمك !

وقام الطبيب بتخديره . . . ثم أجرى له عملية جراحية عاونه فيها زوجته وقام المخلص جوزيف بتقديم كل المساعدات الممكنة . وبعد انتهاء العملية ، ظل شفايتزر جالسا إلى جوار سرير الرجل المريض منتظرا أن يفيق بعد انتهاء مفعول التخدير . . .

ويتمهل شديد . بدأ المريض يحرك راسه . . ثم
فتح عينيه ، وبدأ يتنفس بعمق ، ويدرك الأشياء التي
تدور حوله . . **وفجأة بدأ الرجل يصيح مرة أخرى :**

— لقد ذهب الألم . . لقد ذهب الألم . . لم أعد
أشعر بأى ألم . . لقد ذهب الألم تماما . . !!

وكان هذا الرجل نموذجا لغيره من عشرات ومئات
المرضى الذين جاءوا الى « الأوجاندا » من مناطق تبعد
مئات الأميال . . قاصدين الشفاء على يديه المباركتين
وعطف قلبه الطيب . . !

١٤ - الحرب العالمية الأولى

وفي صيف ١٩١٤ ، فكر الزوجان شفايتزر في أن يقوموا برحلة قصيرة الى أوروبا ليستريحوا فيها من عناء العمل المتواصل في المستشفى ، وليستروحا فيها نفسيهما مثلما يفعل غيرهما من البيض الذين يعملون في افريقيا .

ولكن في منتصف الصيف ، جاء بعض الجنود الفرنسيين الى حيث يسكن شفايتزر وزوجته . وقالوا لهما بخشونة وبطريقة عسكرية :

- انتما من اقليم الألزاس . . وقد ولدتما في

منطقة ألمانية .. وانتما الآن تعيشان في افريقيا
الفرنسية .. ونظرا لان الحرب دائرة الآن بين ألمانيا
وفرنسا .. فانتما الآن اسرى لنا .. واعتبرا نفسيكما
مقبوضا عليكما .. فلا تفادرا مسكنكما هنا دون اذن
منا والا تعرضتما للعقوبة ..

وبالرغم من أن الزوجين قد امتثلا لأوامر هؤلاء
الجنود الفرنسيين الا أن الأهالي الافريقيين من المرضى
ومن سكان قرية «لامباريني» قد غضبوا لذلك غضبا
شديدا وقالوا للجنود :

— لاشأن لكم بطبيبنا الطيب !

وأوشك بعض الأهالي أن يخذلوا الجنود الفرنسيين
بالحجارة وقطع الطوب لسولا تدخل شفايتزر لمنعهم من
ذلك ..

وقد استاء شفايتزر من هذا الوضع الغريب الذي
يجعل الحرب الدائرة في أوروبا تؤدي الى وقف العمل في
مستشفيات الافريقي .. كما أن الافريقيين أنفسهم
أصبحوا لايتصورون كيف يتوقف العمل في المستشفى

بسبب حرب تدور في بلاد بعيدة لا يعرفون عنها شيئاً ..
وقال رجل افريقى عجواز ينتمى الى قبيلة معروفة
بانها تاكل اعداءها من البشر :

.. كم رجلا قتل في هذه الحرب .. عشرة ١٩
فقال شفايتزور :

.. لا .. لقد قتل عدد كبير من الرجال .. !
وعندئذ قال الافريقى العجواز بدجشة :

.. في المعارك التي تدور احيانا بين قبائلنا الافريقية،
نلتزم بدفع «دية» لكل قتيل .. فكيف سيدفعون الدية
لكل هذا العدد الكبير من الرجال القتلى .. ولماذا لا تجلس
القبائل الأوروبية مع بعضها للتفاوض فيما بينها مثلاً
تفعل قبائلنا ١٩٠٠

وبعد فترة صمت تساءل الافريقى العجواز مرة
أخرى :

.. هل ياكل البيض قتلاهم .. ١٩

فقال شفايتزر :

ـ لا ٠٠ بكل تأكيد

وعندئذ قال الافريقى العجوز :

ـ اذن فهم يقتلون لمجرد ممارسة القتل والقسوة !

وتنفذا لأوامر الجنود الفرنسيين ، لزم شفايتزر بيته لا يبرحه ٠٠ ووجد عندئذ الفرصة التى كان ينشدها منذ زمن طويل ، وهى أن يجد الوقت الكافى لتأليف كتاب عن « معنى الحياة » ٠٠ ولماذا وجدنا فى هذا العالم ٠٠ وما هى الواجبات والمسئوليات الملقاة على عواتقنا كبشر ٠٠

وظل يكتب ويكتب ، ويصب عصارة فكره وروحه على الورق : « ان عالمنا شديد الشبه بقسارب قديم يتعرض للفرق ٠٠ وان واجبى ان أساعد فى بناء قارب جديد يستطيع أن يعبر بنا رحلة الحياة » ٠٠

ولاحظ شفايتزر ان الطبيعة وجميع الكائنات حوله

تصارع من أجل استمرار الحياة .. كل نبات أو حيوان
فى القابة يصارع من أجل بقائه واستمراره .. نأما
مثلاً يفعل الإنسان .. « فهل معنى ذلك أننا إذا أردنا
أن نعيش ونواصل الحياة ، فإن علينا أن نصارع بعضنا
بعضاً ونأمر بعضنا بعضاً ١٩ » .

وأخذ شفايتزر يفكر فى تلك المشكلة الى أن اقتنع
فى النهاية بأن الحياة مقدسة .. وأن واجبنا أن نحافظ
على قدسيتها . وكتب يقول :

« يجب أن نحترم الحياة .. وإذا أحترم الإنسان
فكرة الحياة .. فلن أقدم - بدون تفكير هكذار - على
تدمير حياة أى كائن آخر ، سواء أكان إنساناً أم حيواناً
أم حشرة أم زهرة أم حتى ورقة صغيرة من أوراق
الشجر » .. !

١٥ - العودة الى أوروبا

وفجأة ٠٠ في خريف عام ١٩١٧ ، حدثت تطورات
مؤسفة ٠٠ فقد أمر الزوجان بالتوجه الى فرنسا
فيوضعا في أحد معسكرات الاعتقال باعتبارهما
منتميين الى دولة عدوة ٠٠ وقد حزن أصدقائهما السود
حزنا عظيما لوداعهما ٠

وبمجرد وصولهما الى فرنسا وضعا في أحد
معسكرات الاعتقال المكتظة بمعقلين عديدين من أمم
وشعوب شتى ٠٠ ونظرا لأن شفايتزر كان الطبيب
الوحيد بين كل هؤلاء المعتقلين ، فقد أخذ على عاتقه

العناية بجميع المرضى في هذا المعسكر . . .

وقد أتاح له ذلك أن يتحدث مع عدد كبير من الناس . . . تحدث معهم عن حياتهم وعن المهن التي كانوا يعملون بها قبل تعرضهم للاعتقال ، وعن آرائهم وخبراتهم في الحياة . . . وقد استفاد شفايتزر من هذه الأحاديث فائدة كبيرة ، واختزن في ذهنه مجموعة كبيرة من المعلومات الثمينة التي استفاد منها في المستقبل .

وفي الربيع التالي ، تم الاتفاق بين كل من ألمانيا وفرنسا على تبادل الأسرى . . . وكان من نتيجة هذا الاتفاق أن أطلق سراح الزوجين شفايتزر وعادا إلى موطنهما الأول بقرية جونزباخ التي تقع بأقليم الألزاس .

وهناك علم شفايتزر بمقتل أمه بسبب الحرب ، كما رأى أباه مازال يواصل عمله بهدوء في كنيسة القرية . . . أما القرية نفسها فقد سلمت من ويلات الحرب ولم يحدث بها أي تدمير يذكر ، وذلك بالرغم

من وقوع القرية في وسط ساحات القتال والمعسارك
الحربية . وكان السبب في ذلك أن المنطقة التي تقع
فيها القرية كانت محمية بمجموعة من التلال . وفي
نهاية الحرب أصبح إقليم الألزاس تابعا لفرنسا مرة
أخرى .

وخلال تلك الفترة شعر شسفايتزر بالمرض ،
وأجريت له عمليتان جراحيتان أصيب بعدها ببعض
الضعف لفترة من الزمن . وكان عليه في تلك الفترة
أن يبحث عن الإجابة الدقيقة لسؤال كان يلوح في ذهنه
باستمرار : « والآن . . ماذا سوف يصنع . . وكيف
سيكون مستقبله 19 » .

كان عليه أولا أن يقوم بتسديد ديونه التي
اقتترضها لدفع تكاليف العمليتين الجراحيتين . وكذا
الديون التي اقتترضها لشراء المعدات والمستلزمات
الطبية لمستشفاه في قرية لامباريني بأفريقيا .

وفي نفس الوقت فقد كان في إمكانه أن يجد
أعمالا مناسبة في أوروبا حيث كان معروفا بأنه كاتب

وطبيب وعازف موسيقى واستاذ محاضر بالجامعة . وقد
ألح عليه الكثيرون من اصدقائه وأقاربه أن يبقى في
أوروبا ليمارس أحد هذه الأعمال أو ليمارسها كلها . وقد
عرض عليه بالفعل أن يصبح استاذ محاضرا في إحدى
جامعات سويسرا . . كما أن زوجته لم تكن قد استردت
صحتها بعد نتيجة للجهود الشاقة والحياة الصعبة التي
عاشتها في افريقيا . . بالاضافة الى أنه رزق بطفلة
تستحق العناية بها .

وفي نفس الوقت أيضا ؛ كانت تصله خطابات
ونداءات من قرية لامباريني بأفريقيا : « دكتور . . ان
الاهالي هنا ينتظرون وصولك بفروغ صبر ! . . دكتور
. . ان الناس هنا يحتاجون اليك ! . . نرجوك أن تعود
الى لامباريني ! » .

اما مشكلة الديون والنقود ، فقد حلها شفاينزر
بطريقة مناسبة . . حيث قام بعدة جولات في مختلف
بلدان أوروبا . . عزف فيها على الأرغن . . وألقى فيها
الأحاديث والمحاضرات التي وصف فيها الأحوال البائسة

للافرقيين .. ووصف فيها مستشفى الذي أقامه في
قرية لامبارني ..

وكان الناس يتجمعون في تلك الحفلات العامة
ليستمعوا الى موسيقاه بشغف .. ويستمعوا الى أحاديثه
ومحاضراته بشغف أكثر .. وبالإضافة الى استمتاع
الناس بكل ذلك ، فقد لاحظوا أيضا أنهم أمام طراز
غير عادي من الرجال .. أمام الفنان وهب نفسه وحياته
لخدمة الآخرين .. وله قلب رحيم مملوء بالمحبة واحترام
الحياة في كافة مظاهرها ..

١٦ - فى أفريقيا مرة أخرى

وبعد احدى عشرة سنة من وصوله الى افريقيا
لأول مرة .. وجد شفايتزر نفسه راكباً فى أحد القوارب
النهرية .. صاعداً مرة أخرى فى مجرى نهر
« أوجوى » ..

ولكن زوجته لم تكن معه فى هذه المرة ، وإنما
كان يصاحبه أحد طلاب الطب ليساعده فى أعماله
بالمستشفى .

ووصل القارب الى لامبارينى .. وصعد شفايتزر

الى التل ليرى ماذا صنع الزمن بمستشفاه ٠٠ ولكن
ماذا رأى ؟ ٠٠ لقد زالت معظم البيوت والحجرات تحت
وطأة وجبروت الغابات الافريقية ٠٠ وامتلات الارض
بالاعشاب الطويلة والاشجار الضخمة التى لم تكس
موجودة من قبل !

ولم يضيع شفائتزر الوقت ، فشرع على الفور
فى البحث عن عمال لماولته فى ازالة الحشائش وقطع
الاشجار واعداد المكان المناسب لاقامة البيت والحجرات
اللازمة للمستشفى ٠٠

وبسرعة البرق انتشر خبر وصوله بين سكان
الغابات والقرى القريبة والبعيدة ٠٠ كانوا يقولون
وقد ملا البشر والامل قلوبهم : لقد عاد ٠٠ لقد وصل
٠٠ عاد الينا الطبيب العظيم مرة اخرى ٠٠ !

وحتى قبل بداية العمل فى اعادة بناء المستشفى
٠٠ فان الافريقيين المرضى عادوا الى الظهور مرة اخرى
٠٠ بجيئون من كل فج وكل صوب ٠٠ ويتجمعون

أمام بيته في انتظار خروجه اليهم في كل صباح ..
وانهمك شفايتزر في عمل شاق مرهق .. فقد
كان عليه أن يعالج مرضاه في فترة الصباح وحتى
الظهر .. ثم يقوم بعد ذلك بالإشراف على بناء حجرات
المستشفى الجديد .. وكان من الصعب العثور على
عمال يصلحون للمساعدة في أعمال البناء .. وحتى إذا
تم العثور على بعض من هؤلاء العمال ، فانهم كانوا
يعملون ببطء .. وإذا غفل شفايتزر عن الإشراف عليهم
دقائق معدودة ، فانهم كانوا يتركون العمل على الفور
ويجلسون في الظل يفسسحكون ويتجاذبون أطراف
أحاديث لا تنتهي ..

وبرر أحد هؤلاء العمال ذلك بقوله :

— الغلطة غلطتك يا دكتور .. إذا كنت لائسنتطيع
أن تستمر في مراقبتنا .. فنحن أيضا لن نستطيع أن
نستمر في العمل !!
ومرت السنوات تباعا ..

وفام شفايتزر بالرحلة بين لامباريني وفرنسا
عدة مرات ٠٠ وأصبح يقسم وقته بين افريقيا وأوروبا ٠٠
وفي أوربا كان يرى أصدقاءه ٠٠ وينشر كتبه ٠٠
ويزور عدة أقطار أوربية ليلقى الأحاديث والمحاضرات
عن تجربة المستشفى في لامباريني ٠٠ ويعزف على
الأرغن في حفلات عامة ٠٠ وكان يقوم بكل هذا النشاط
ليجمع النقود اللازمة للوفاء باحتياجات المستشفى في
لامباريني ٠٠

وفي لامباريني توسعت المستشفى وازدادت
حجراتها وكثر عدد المرضى وعدد العاملين فيها ٠٠
وتحسنت الأحوال أكثر وأكثر بعد اكتشاف عسین
للمياه العذبة النقية جوار المستشفى ٠٠ ولذلك فقد
قام شفايتزر بتطهير منطقة واسعة من أرض الغابة ،
وأزال أعشابها ومهد أرضها وجعلها صالحة لزراعة
مجموعات من الفواكه والخضراوات تكفي لاستهلاك
المرضى الذين يعالجون في المستشفى ، وللعمال الذين
يعملون فيها ٠٠

وفي عام ١٩٤٧ أصبح عدد الأسرة في المستشفى
ثلاثمائة وخمسين سريرا . وأصبح يعمل فيها عدد
كبير من الاطباء المتحمسين ، ومجموعة كبيرة من
المرضات الأوربيات . . .

أما الدكتور شفايتزر فقد تخصص في علاج
مرض خطير اسمه « الجذام » . . . وكان هناك عدد كبير
من الأفريقيين المصابين بهذا المرض . . . الأمر الذي دعا
شفايتزر أن يبنى لهم قرية خاصة قرب المستشفى
ليعزل فيها هؤلاء المرضى بعيدا عن المرضى الآخرين غير
المصابين بهذا المرض الخطير . . . خصوصا وأن هذا
المرض كان يستلزم العلاج الطسويل والبقاء تحت
الإشراف الطبي لفترة طويلة . . .

١٧ - السنوات الأخيرة

وأصبحت لامباريني الآن مركزا طبيا حافلا بالنشاط .. يقدم العلاج والخدمات الطبية لعدة آلاف من المرضى الذين يعيشون في تلك المنطقة الحارة الرطبة من أفريقيا ..

أما الرجل العظيم الذي كان وراء هذا العمل العظيم .. ألبرت شفايتزر .. فقد حصل على جائزة نوبل .. كما كرمته العديد من الجامعات والحكومات .. وحازت كتبه العديدة في الموسيقى والعقيدة وفلسفة الحياة على شهرة واسعة في عديد من أنحاء العالم ..

كما اعتبر واحدا من اعظم عازفى الأرغن الذين عرفهم
العالم .

كان يتمتع بروح نبيلة تدفعه دفعا لتقديم خدماته
لكل الضعفاء والمحتاجين ، ولتبث فيهم نور الامل بلا
مقابل الا احساسه بالرضا حين يرى جهوده فى خدمة
الناس قد تكللت بالنجاح ..

لقد بذل هذا الرجل العظيم جهودا جبارة على
مدى نحو اربعة واربعين عاما ..

وبالرغم من انه قد قضى حياته فى قارتى أوروبا
وأفريقيا .. وهما قارتان مختلفتان تماما .. الا أنها
كانا بالنسبة اليه أرضا واحدة .. فالإنسان هو
الإنسان فى كل زمان وكل مكان ..

وفى سنة ١٩٦٥ .. مات البرت شفايتزر فى
قرية لامبارينى ..

وانتشر خبر موته بسرعة البرق في جميع أنحاء
العالم .. وعرف الناس أنك قد أنقذت حياة رجل من أعظم
الرجال في هذا العصر قد انتهت .. !

الفهرس

- ١ - المهاتما غاندى ٧
- ٢ - فلورنس نايتنجيل ٥٣
- ٣ - ابراهام لينكولن ١١٣
- ٤ - ملام كودى ١٨٧
- ٥ - ألبرت شفايتزر ٢٧٥

رقم الإيداع ١١٩٨٤/٢٠٠٠

I.S.B.N. 977-01-6878-5

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

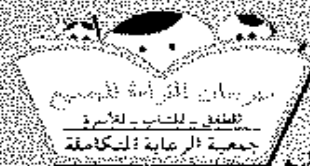


هذا هو العام السابع من عمر مكتبة الأسرة...
ومثل سنوات طوال لم يلق الناس حول مشروع ثقافي
كثير كما التفتوا حول هذا المشروع الثقافي الضخم حتى
أصبح مشروعاتهم الخاصة، ومطالبوا باستمراره طوال العام
واستجيبا لهذا المطلب الجماهيري العزيز إيماناً منا
بأهمية الكتاب، وبالكلمة العادة العميقة التي يحتويها، في
إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة نورها
الحضاري العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت مكتبة الأسرة... أن تعيد الروح إلى
الكتاب مصدراً هاماً وخالياً للثقافة في زمن الإههارات
التكنولوجية المعاصرة... وبما نحن نفتخر ببدء العام
السابع من عمر هذه المكتبة التي أصدرت (١٧٠٠)
عنواناً في أكثر من ٢٠ مليون نسخة، نحتضنها الأسرة
العصرية في عيونها وعقولها زاهياً وتراثاً لا يبلل من أجل
حياة أفضل لهذه الأمة... ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن
ومكتبة في كل بيت.

سوزان مبارك

مكتبة الأسرة 2000
مهرجان القراءة للجميع



الشمس
٥ قرش

To: www.al-mostafa.com